الكَلامُ المُوَجَّهُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ
(دِراسَةٌ في تَعَدُّدِ الدَّلالَةِ)

د. وائل عبد الأمير الحربي
كلية الآداب - جامعة بابل

فحوى البحث

يَدْرسُ هَذَا البَحْثُ فَنًّا لُغَويًّا وبَلاغِيًّا أَطْلَقَ عليه السَّابقونَ مِن عُلَمَاءِ التَّفسِيرِ والبَلاغَةِ: اسمَ الكَلام المُوَجَّهِ أو التَّوجِيهِ، وَهُوَ فَنٌّ يُعْنَى الدَّارِسُونَ فِيهِ بِالبَحْثِ في تَعَدُّدِ الدَّلالاتِ والمعَانِي في النَّصِّ الوَاحِدِ. وَقَد قَسَّمْتُ بحثي هذا عَلَى ثَلاثَةِ مَحَاوِرَ، عَالجْتُ في المحوَرِ الأَوَّلِ مُصطَلَحَ الكَلامِ المُوَجَّهِ، فَوَقَفتُ عَلَى أَهَمِّ مَن اسْتَعْمَلَه مِن القُدَمَاءِ، مُبيِّنًا مَا ارْتَسَمَ مِن مَفْهُومٍ لَهُ في أَذْهَانِهم في ضَوْءِ مَا ذَكَرُوه لَهُ مِن تَعريفَاتٍ، وَمَا أَوْرَدُوا لَهُ مِن شَوَاهِدَ وَأَمثِلَةٍ، كَمَا بَيَّنَ البَحْثُ أَنَّ في التُّرَاثِ العَرَبِيِّ مُصْطَلَحَاتٍ أُخْرى اسْتَعْمَلَهَا القُدَمَاءُ بَدِيلًا عَن مُصْطَلَحِ الكَلامِ المُوَجَّهِ، فَعَرَضَهَا وَبيَّنَ الفُرُوقَ بَيْنَهَا. في حين تَنَاوَلَ المحورُ الثَّاني أَهَمَّ النُّصُوصِ القُرآنِيَّةِ الَّتي تَضَمَّنَتْ فَنَّ الكَلامِ المُوَجَّهِ، مُعَوِّلِينَ في اسْتِخْرَاجِهَا وَتَحدِيدِ مَوَاضِعِهَا عَلَى أَقْوَالِ المفَسِّرِينَ، وَمُفِيدِينَ -في الوَقْتِ نَفْسِه- مِن آرَائِهِم وَاجْتِهَادَاتِهم في الكَشْفِ عن الدَّلالاتِ وَالمعَاني المحْتَمَلَةِ للنُّصُوصِ، مَعَ البَحْثِ في الأَسْبَابِ الَّتي تُؤَدِّي إِلَى تَعَدُّدِ الدَّلالاتِ وَاتِّسَاعِ المعَاني في النَّصِّ الوَاحِدِ. في حين كَانَ المحورُ الثَّالِثُ للخَاتِمَةِ الَّتي قَدَّمْنَا فِيهَا مُلَخَّصًا لمضْمُونِ البَحْثِ وَمَفْهُومِهِ، كَمَا أَجْمَلْنَا فِيهَا أَهَمَّ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ البَّحْثُ مِن نَتَائِجَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكَلامُ الموَجَّهُ -أَو كَمَا يُسمِّيه عُلَماءُ البَلاغَة: التَّوجيه -هو فنٌّ بلاغيٌّ يُراد به أَنَّ الكلامَ يحتملُ وَجهين مُختلفين، أَي أَنَّه يحتملُ دلالتين مُختلفتين؛ قال السَّكَّاكيُّ (ت٦٢٦هـ) ((التَّوجيهُ، وهو إيرادُ الكلام محتملًا لوجهين مختلفين كقولِ مَن قال للأَعور: ليتَ عينيه سَواء، وللمتشابهات مِن القُرآن مَدخلٌ في هذا النَّوع باعتبار. ومنه سَوقُ المعلوم مَساقَ غَيره ولا أُحِبُّ تَسميته بالتَّجاهل))[1].

ولعلَّ في قول السَّكاكيِّ: إنَّ التَّوجيه هو ما يحتملُ وَجهين مختلفين، إشارةً إلى أَنَّ الاختلافَ غيرُ محصورٍ في المعنى اللُّغويِّ وإنَّما يَشملُ المعنى السِّياقيِّ على اختلاف مُكوِّناته مِن مُتكلِّم، ومُخاطَب أو مُتلَقٍّ، ورسالةٍ بما فيها من دلالاتٍ أَساسيَّة أَو هامشيَّة. وهو في كَلامه هذا الْتفَتَ إلى أَنَّ لهذا الفنِّ تَجلِّيَاتٍ في المتَشابهَاتِ من آياتِ القُرآنِ الكَريم، ومِن ثَمَّ كان لِطبيعةِ هذا الفنِّ مَدخلٌ في تلكَ المتَشابهَاتِ بِاعْتِبَارِ أَنَّه يَبحَثُ فيها عن تَعَدُّدِ الاحْتِمَالاتِ الدَّلاليَّة، وهو ما تُتيحُه نصوصُ المتَشَابِهِ القُرآنيِّ. وقد سمَّاه بـ: سَوق المعلوم مَساق غير المعلوم في القُرآنِ الكريم، مِن بابِ التَّأَدُّب.

وَقَدْ أَطْلَقَ ابنُ أبي الإصبع العدوانيّ (ت٦٥٤هـ) على فنِّ التَّوجيه اسم التَّورية، قال: ((باب التَّورية ويُسمَّى التَّوجيهَ، وهي أَنْ تكونَ الكلمةُ تحتملُ مَعنيين، فيَستعمل المتكلمُ أَحدَ احْتِمَالَيهَا ويُهمِل الآخَر، ومُرادُه ما أَهملَه لا ما استعملَه، كقولِ عليٍّ عليه السلام في الأَشعث بن قَيس: «وهذا كان أَبُوه ينسجُ الشِّمالَ باليمين»[2]، لأَنَّ قَيساً كان يحوك الشِّمالَ الَّتي واحدتُها شَمْلَة))[3]. فالتَّوجيهُ عند ابنِ أبي الإصبع هو، إذًا، ما يَحتملُ مَعنيين، مُرادُ المتكلِّم منهما البعيدُ لا القريب.

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٨، وينظر: الطراز لأسرار البلاغة: ٣/ ٧٤٧٤، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٤/ ٦٢٨.

(٢) ينظر القول في: غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٥٦١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٥٠٢، ولسان العرب: ١١/ ٣٦٨ (شمل)، وتاج العروس: ٢٩/ ٢٨٩ (شمل).

(٣) تحرير التحبير: ٢٦٨.

ويُورِدُ ابنُ أبي الإصبع العدوانيُّ مُصطلحًا آخرَ قريبًا من مُصطلح التَّوجيه، وهو (الإبهام)، غيرَ أنَّه يكونُ في ما يحتملُ مَعنيين مُتضادَّين، قال: ((باب الإبهام: وهو أن يقولَ المتكلِّمُ كلامًا يحتملُ مَعنيين مُتضادَّين، لا يَتميزُ أَحدُهما عن الآخَر، ولا يَأتي في كلامه بما يحصل به التَّمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهامَ الأمرِ فيهما قَصْدًا.. ، والإبهامُ لا يَكونُ إلَّا في الجُمل المركَّبة المفيدة، ويختصُّ بالفُنون كالمديح، والهجاء، وغيرِهما))[٤]. ويُلْحَظ، على كلامه، هنا، أَنَّه جَعَل الإبهامَ مُختصًّا بالفنون كالمديح والهجاء، وهذا لا يَنطبقُ على التَّوجيه، فهو لا يختصُّ بفَنٍّ مُعين، كما أَنَّه لا يختصُّ بالمعاني المتضادَّة. ويظهر -ممَّا سَبَق- أَنَّ الفَرْقَ بينَ الإبهام والتَّورية هو أَنَّ الإبهامَ يَحتملُ مَعنيين مُتضادَّين من دون إرادةِ أَحدِهما، في حين أَنَّ التَّوريةَ تَحتملُ مَعنيين يُرادُ منهما المعنى البعيد.

(٤) تحرير التحبير: ٥٩، وينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: ٧/ ١٧٤، وخزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ١٧٨، وأنوار الربيع في أنواع البديع: ٨١، بترقيم الشاملة آليا.

ويَذكرُ يحيى بنُ حمزةَ العَلَويُّ (ت٧٤٥هـ) أَنَّ للتَّوجيهِ عند البلاغيينَ استعمالَيْن، أَحدهما هو ما يُسَمَّى بالمدح بما يُشبه الذَّمَّ، والآخرُ: هو أَن يُمدحَ الممدوح بشيءٍ يقتضي هذا الشيءُ مَدْحَه بشيءٍ آخرَ، وقد وضَّح كُلًّا منهما بشَوَاهِدَ كاشِفة، قال: ((ثم إنَّه يَرِدُ في البلاغة على استعمالين،... ، الاستعمال الأول: أَنْ يُؤكَّدَ المدْحُ بما يكونُ مُشبهًا للذَّمِّ بأَنْ تَنْفيَ عن الممدوح وَصْفًا مُعينًا ثُم تُعْقِبُه بالاستثناء فتُوْهِم أَنَّك استثنيتَ ما يُذَمُّ به فتَأْتي بما من شأنِه أَنْ يُذَمَّ به وفيه المبالغة في مدح الممدوح ومثاله قول النابغة[٥]:

وَلا عَيْبَ فِيهم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهم
هِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتَائبِ

الاستعمال الثاني من التَّوجيه، وهو أَن يُمدَحَ شيء يَقتضي المدْحَ بشيءٍ آخرَ، وهذا كقول المتنبي[٦]:

نَهَبْتَ من الأَعْمَارِ مَا لَو حَوَيْتَه
لَهُنِّئْتِ الدُّنيا بِأَنَّكَ خَالِدُ

(٥) البيت للنابغة الذبياني، في ديوانه: ٤٤.
(٦) البيت للمتنبي في ديوانه.

فأَوَّلُ البيتِ دَالٌّ على المدح بالشَّجاعة، وآخرُه دالٌّ على عُلُوِّ الدَّرجة، ومِن هذا قولُ بعضهم مِن النَّثر: هُم بِحارُ العلى إلا أَنَّهم جِبال الحلم،...))[٧]. ويُفهم من كلام العَلَويِّ وشَواهِده وأَمثلته أَنَّه يحصر فنَّ التَّوجيه أو الكلام الموجَّه بالمدح أو الهجاء، وهذا شيءٌ رفضه الدارسون اللّاحقونَ مِن أَهلِ البلاغة.

وَقَدْ بَيَّنَ ابنُ حجَّةَ الحمويِّ (ت٧٣٨هـ) أَنَّ التَّوجيهَ مَا يَحتَمِلُ مَعْنيين احْتِمَالًا مُطلقًا مِن غَيْرِ تَقييدٍ بمدحٍ أو بغَيره، قال: ((التَّوجيه،...، في الاصطلاحِ أَن يحتملَ الكلامُ وَجهين مِن المعنى احتمالًا مُطلقًا، من غَيرِ تقييدٍ بمدح أَو غَيرِه))[٨]. ونبَّه على أَنَّ التَّوجيه هو ما يُسمَّى عند القدماء بالإبهام، ذاهبًا إلى أَنَّ تَسميتَه بالإبهام أَليقُ مِن تَسميتِه بالتَّوجيه، ولافتًا إلى أَنَّ السَّكَّاكيَّ هو من سمَّاه بالتَّوجيه ومِن ثَمَّ تابعه اللَّاحقون، قال: ((والتَّوجيه هو إبهامُ المتقدمينَ، لأَنَّ الاصطلاح فيهما واحدٌ، غيرَ أَنَّ الشَّواهدَ الَّتي استشهدوا بها على التَّوجيه، الإبهامُ أَحقُّ بها لِطُلوع أَهلتها زاهِرة في أُفقه، ولمطابقةِ التَّسميةِ،...، فتسميةُ النَّوع هنا بالإبهام أَليقُ مِن تَسميتِه بالتَّوجيه، ومُطابقةُ التَّسمية فيه لا تَخفى على أَهلِ الذَّوقِ الصَّحيح،...، والسَّكَّاكيُّ ومَن تبعه سمَّوا هذا النَّوع: التَّوجيه، ونَسَجَ النَّاسُ على مِنوالهم))[٩].

وَيُسَاوِي ابنُ حجةَ الحمويُّ، في مَوضعٍ آخَرَ، بينَ مُصطَلَحِ التَّورية والإيهامِ (بالياء بنقطتين) والتَّوجيهِ والتَّخيير، مُفَضِّلًا مُصطلحَ التَّورية عليها، قال ((التَّوريةُ، يُقال لها: الإيهام والتَّوجيه والتَّخيير. والتَّورية أَولى في التَّسميةِ لِقُربها مِن مُطابقة المسمّى، لأَنَّها مَصدر وريت الخبر تَورية إذا سترته وأَظهرت غَيْرَه، كأَنَّ المتكلِّمَ يجعلُه وراءَه بحيثُ لا يَظهر. وهي في الاصطلاح، أَنْ يَذكرَ المتكلِّمُ لفظًا مُفردًا له مَعنيانِ حَقيقيّانِ، أَو حقيقة

(٧) الطراز لأسرار البلاغة: ٣/ ٧٤٧٤.

(٨) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٣٠٣.

(٩) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٣٠٣.

ومجازًا، أَحدهما قَريبٌ ودلالةُ اللّفظِ عليه ظاهرةٌ والآخَرُ بعيدٌ ودلالةُ اللَّفظِ عليه خَفِيّةٌ، فيُريدُ المتكلِّمُ المعنى البعيدَ ويُوري عنه بالمعنى القَريبِ، فيَتَوَهّم السّامعُ أوَّلَ وَهلة، أَنَّه يُريدُ القَريبَ وليس كذلك، ولأَجلِ هذا سُمِّيَ هذا النوع إيهامًا))[10]. والمتأَمِّلُ في هذا الكلامِ يَجد أَنَّ التَّوريةَ في ضوءِ المفهومِ الَّذي قدَّمه الحمويُّ نفسُه يختلفُ عن التَّوجيهِ، لأَنَّ التَّوريةَ قد تكونُ في كلمةٍ واحدةٍ تحتملُ مَعنيينِ في حين أَنَّ التَّوجيهَ قد يكونُ في كلمةٍ وقد يكونُ ناتجًا مِن دلالةِ التَّركيب كُلِّه لا مِن كلمةٍ واحدةٍ وهو الأغلبُ، والأَهمُّ مِن هذا أَنَّ التَّورية فيها مَعنيانِ أَحدهما قَريبٌ غيرُ مُرادٍ والآخَرُ بَعيدٌ وهو المرادُ عندَ المتكلِّمِ، في حين أَنَّ التَّوجيهَ كلامٌ يَحتملُ وَجهينِ مِن غَيرِ مُرجِّحٍ لأَحدِهما على الآخَرِ.

وَقَدْ أَشَارَ ابنُ مَعصومٍ (ت ١١١٩هـ) إلى التَّرادُفِ الاصطلاحيِّ بيْنَ مُصطلحَي الإبهامِ والتَّوجيهِ، قال: ((الإبهامُ -بالباء الموحَّدة، وسمَّاه بعضُهم: التَّوجيه، ومُحتمل الضِّدَّين))[11].

وفي ما يأتي دراسةٌ لأَهمِّ النُّصوصِ القُرآنيَّةِ الَّتي أَشارَ المفسِّرونَ والبلاغيُّونَ إلى أَنَّ فيها كلامًا مُوجَّهًا، مع محاولةٍ للوقوفِ على أَسبابِ تَعدُّد المعنى وَمُسوِّغَاتِه مِن مُتكلِّمٍ أَو مُخَاطَبٍ أَو نَصٍّ أَوْ غَيْرِ ذلك. وَأَوَّلُ هذه النُّصوصِ قَولُه تَعَالى:

١-﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[سورة النساء: ٦٤].

اكْتَفَى بَعْضُ المفسِّرينَ في تَفْسِيرِ قولِه تَعَالى: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾، بِذِكْرِ مَعنًى وَاحِدٍ غايتُه الذَّم، وفحوى هذا المعنى: أَنَّ هذا التَّعْبِيرَ دُعاءٌ

(١٠) خزانة الأدب وغاية الأرب: ٢/ ٣٩.

(١١) أنوار الربيع في أنواع البديع ص: ٨١، بترقيم المكتبة الشاملة آليا.

على الرَّسولِ محمدٍﷺ بأَنْ يُصابَ بالصَّمَمِ فلا يَسْمَعُ، ودعاءٌ عليه بأَنَّه إِذَا خَاطَبَ النَّاسَ لا يَسْمَعون منه ولا يُجيبونَه؛ قالَ الأَخفشُ: ((وقولُه ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي: لا سَمِعْتُ، وأما ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي: لا يُسْمَعُ مِنْكَ فأَنْتَ غَيْر مُسْمِعٍ))[١٢]. فالأَخفشُ هنا يُبينِّ أَنَّ المعنى هو: لا سَمِعْتَ، ولكنَّه يُشِيرُ إلى أَنَّ هذا التَّركيبَ قد يَحتملُ مَعنًى آخرَ مَرجعُهُ تَغيُّرُ الصِّيغةِ الصَّرفيَّةِ لِكَلِمَةِ (مسمع) بيْنَ دلالتَي اسمِ المفعول واسمِ الفاعل. وهذا المعنى الآخرُ الناتجُ من تغيُّرِ الصيغةِ الصرفيةِ هو دعاء على الرسولﷺ بأن يكونَ كلامُه غيرَ مسموعٍ وخِطابُه غيرَ مُجَاب. وقد بيَّن الزجاج هذا المعنى مِن غيرِ إشارةٍ إلى أَثر تَغيُّرِ الصِّيغة الصَّرفيَّةِ في إنتاجِ هاتين الدلالتين؛ قال: ((وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾. كانت اليهود -لُعِنَتْ- تقول للنبيﷺ: اسمَعْ، وتقول في أنفسها: لا أُسْمِعتَ. وقيل: غَيرَ مسمَعٍ، غير مجاب إلى ما تدعو إليه))[١٣]. وقد عَرَضَ الواحديُّ صورةً مسرحيَّةً لغويَّةً تُفسِّرُ المعنى السَّلبيَّ الَّذي يَتضمنه هذا التعبيرُ، مُرْجِعًا هذا المعنى إلى التلاعب الخطابي بين المُعلَنِ من الكلام والمخْفِي منه، قال: ((كانوا يقولون للنبيﷺ: اسمع، ويقولون في أنفسهم: لا سمعت))[١٤]. وهذا ما أكده قول البغوي في تفسيره: ((وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ أَيْ: اسْمَعْ مِنَّا وَلَا نَسْمَعُ مِنْكَ، غَيْرَ مُسْمَعٍ أَيْ: غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْكَ. وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّﷺ: اسْمَعْ ثُمَّ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَا سَمِعْتَ))[١٥].

في حين ذكر مُفسِّرونَ آخَرونَ وَجْهَيْنِ في تفسيرها، أَحدُهُما: أَنَّ هذا التعبيرَ دُعاءٌ على مَن قِيلتْ فيه بأَنْ يُصابَ بالصَّمم، والآخَرُ: أَنَّه دُعاءٌ له؛ قال الرَّاغب الأَصفهانيُّ: ((وقوله ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ يُقال على وَجهَيْن:

(١٢) معاني القرآن للأخفش: ١/ ٢٥٩، وتأويل مشكل القرآن: ٢١٨.

(١٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٥٩.

(١٤) التفسير الوسيط للواحدي: ٢/ ٦١.

(١٥) تفسير البغوي: ١/ ٦٤١.

أَحدُهُما: دُعاءٌ على الإنسانِ بالصَّمم. والثَّاني: دُعاءٌ له))[١٦]. وقد شَرح الزَّمخشريُّ هذين الوَجهَيْن كاشِفًا عن أَنَّ هذا التَّعبيرَ القرآنيَّ يحتمل الذَّمَّ والمدحَ؛ قال: ((هو قولٌ ذو وجهَيْنِ، يحتمل الذَّمَّ أَي اسمع مِنَّا مَدعوًّا عليكَ -بِلا سمعت-لأَنَّه لو أُجيبتْ دَعوتُهم عليه لم يَسمع، فكانَ أَصمَّ غيرَ مسمع،... ، أَو اسمع غيرَ مُجابٍ إِلى ما تَدعو إليه؛ ومعناه غيرَ مسمعٍ جَواباً يُوافِقُكَ، فكأَنَّكَ لم تَسمع شيئًا. أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه، فسمعُك عنه نابٍ،... ، ويحتمل المدْحَ، أَي اسمع غيرَ مسمع مَكروهاً، مِن قَولِك: أَسْمَعَ فُلانٌ فُلانًا إِذا سَبَّه))[١٧]. وبيّن ابنُ عطيةَ أَنَّ هذا التَّعبيرَ تَعبيرٌ استعملته اليهودُ لأَنَّها تُريد أَن تُظهِرَ الدُّعاءَ له في حين أَنَّها تُخْفِي في النفوسِ الدُّعاءَ عليه والذَّمَّ له؛ قال: ((وغَيْرَ مُسْمَعٍ يتخرَّجُ فيه معنيان: أَحدُهُما غيرُ مأمورٍ وغير صاغِر، كأَنَّه قال: غير أن تسمع مأمورا بذلك، والآخرُ على جهة الدُّعاءِ، أي لا سمعت، كما تقول: امضِ غير مصيب، وغير ذلك، فكانت اليهود إذا خاطبت النبيَّ بغير مسمع، أَرادتْ في الباطنِ الدُّعاءَ عليه، وأَرتْ ظاهِرًا أَنَّها تُريدُ تعظيمه))[١٨]. ويبدو أَنَّ الفَرْقَ بين ما ذكره الزجاجُ والبغويُّ من جهةٍ وما ذكره ابنُ عطيةَ من جهةٍ أُخرى هو أَنَّ المتكلِّمَ أَو المرسِلَ، على الرأي الأول، يُجَزِّئُ الرِّسالةَ، فيُظْهِر مِنها شيئًا يُوافِقُ العُرفَ العامَّ وتوجُّهاتِ المتلقِّي بصوتٍ مسموعٍ للجميع، ويقول الجزْءَ الآخَر مِن الرسالةِ لِنَفْسِهِ معَ نَفْسِه وإِرضاءً لهوى نفسِه، أَيضًا بصوتٍ خافتٍ لا يَتمكَّن مِن سماعِه إِلَّا هو وأَقْرَانُه اليهودُ. في حين يبدو أَنَّ ابنَ عطيةَ يَفهمُ مِن هذا التَّعبيرِ أَنَّ طريقةَ

(١٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣/ ١٢٦١، وزاد المسير: ١/ ٤١٦.

(١٧) الكشاف: ١/ ٥١٨، وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٣٦٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٤٣، و أنوار التنزيل: ٢/ ٧٧، و مدارك التنزيل: ١/ ٣٦٢، و محاسن التأويل ٣/ ١٤١.

(١٨) المحرر الوجيز: ٢/ ٦٢، وينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

النُّطقِ كانتْ واحدةً مِن حيث وُضوحُ الصَّوتِ ودرجةُ ارتفاعِه، فليسَ ثمةَ كلامٌ قِيلَ بصوتٍ واضحٍ وآخرَ قِيلَ بصوتٍ مُنخفضٍ غيرِ مَسموعٍ؛ فمَكْمَنُ التَّلاعبِ اللُّغويِّ والدَّلاليِّ إنَّما يَرجعُ إلى أنَّ هذه الرِّسالةَ اللغويَّةَ تحتملُ دلالةً ظاهِرةً يُراد مِن المتلقِّي فهمُها أخذًا بالظَّاهِرِ اللُّغويِّ، وتحتمل دلالةً باطِنةً هي الَّتي يُريدُها المرسلُ لِيُرضِيَ بها نَفْسَه، وهو مُدْرِكٌ أنَّها ليستِ الدَّلالةَ المطابقةَ لما قَرَّ في ذِهْنِ المتلقِّي.

وجَعَلَ الرَّازي هذا الاستعمالَ من ضَلالاتِ اليهودِ، لأنَّهم استعملوا اللُّغةَ على نَحْوٍ مقصودٍ لِيُؤدِّيَ هذا الاستعمالُ اللغويُّ المقصودُ دلالةَ المدحِ ظاهرًا ودلالةَ الذمِّ باطنًا مِن وُجوهٍ، وهو في هذا يَتوسَّعُ في إيضاحِ الدَّلالاتِ الَّتي ذكرها الزَّمخشريُّ، قال: ((مِنْ ضَلَالَتِهِمْ قَوْلُهُ: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ ذُو وَجْهَيْنِ يَحْتَمِلُ الْمَدْحَ وَالتَّعْظِيمَ، وَيَحْتَمِلُ الْإِهَانَةَ وَالشَّتْمَ. أَمَّا أَنَّهُ يَحْتَمِلُ الْمَدْحَ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، وَأَمَّا أَنَّهُ مُحْتَمِلٌ لِلشَّتْمِ وَالذَّمِّ فَذَاكَ مِنْ وُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اسْمَعْ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَا سَمِعْتَ، فَقَوْلُهُ: غَيْرَ مُسْمَعٍ مَعْنَاهُ: غَيْرَ سَامِعٍ، فَإِنَّ السَّامِعَ مُسْمَعٌ، وَالْمُسْمَعَ سَامِعٌ. الثَّانِي: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْكَ، وَلَا تُجَابُ إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَمَعْنَاهُ غَيْرَ مُسْمَعٍ جَوَابًا يُوَافِقُكَ، فَكَأَنَّكَ مَا أَسْمَعْتَ شَيْئًا. الثَّالِثُ: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ كَلَامًا تَرْضَاهُ، وَمَتَى كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَعُهُ لِنُبُوِّ سَمْعِهِ عَنْهُ، فَثَبَتَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مُحْتَمِلَةٌ لِلذَّمِّ وَالْمَدْحِ، فَكَانُوا يَذْكُرُونَهَا لِغَرَضِ الشَّتْمِ))[19].

وأَكَّدَ أبو حَيَّانَ الأندلسيُّ أنَّ مُرادَ اليهودِ مِن هذا الاستعمالِ هو الوَجْهُ المكروه بدليلِ ما جاء قبله، وهو قولُه تعالى: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، قال: ((وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ هَذَا الْكَلَامُ مُوَجَّه، وَيَحْتَمِلُ وُجُوهًا. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ الْوَجْهَ الْمَكْرُوهَ لِسِيَاقِ مَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: اسْمَعْ

(١٩) مفاتيح الغيب: ١٠/ ٩٣ - ٩٤.

لَا سَمِعْتَ))[٢٠]. وقد بيَّنَ الطَّاهِرُ بنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ =١٩٧٤م) أَنَّ هذا التَّعبيرَ كلمةٌ كانت العَرَبُ تستعملُها في الدُّعاءِ بالخيرِ، ولكنَّ اليهودَ استعملتْها على نَحْوٍ آخَرَ؛ إذ أَرادت مِن هذا التَّعبيرِ المعنى المكروهَ، إرضاءً لأَنفسِهم ونَواياهم السَّيئةِ، وذلك بأَن يُظهِروا شيئًا ويُضمِروا في أَنفسِهم خِلافَه، قال: ((وَمَعْنَى اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ عِنْدَ مُرَاجَعَتِهِ فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ: اسْمَعْ مِنَّا، وَيُعَقِّبُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، فِي مَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ: (افْعَلْ غَيْرَ مَأْمُورٍ). وَقِيلَ مَعْنَاهُ: غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، فَلَعَلَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَقُولُونَ: أَسْمَعَهُ بِمَعْنَى سَبَّهُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ مَعْرُوفَةَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي مَعْنَى الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ إِطْلَاقًا مُتَعَارَفًا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوهَا لِلرَّسُولِ أَرَادُوا بِهَا مَعْنًى آخَرَ انْتَحَلُوهُ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يَسْمَحُ بِهِ تَرْكِيبُهَا الْوَضْعِيُّ، أَيْ أَنْ لَا يَسْمَعَ صَوْتًا من متكلّم. لِأَن يَصِيرَ أَصَمَّ، أَوْ أَنْ لَا يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ. وَالَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدُ: وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا -إِلَى قَوْلِهِ: -اسْمَعْ وَانْظُرْنا فَأَزَالَ لَهُمْ كَلِمَةَ (غَيْرَ مُسْمَعٍ). وَقَصْدُهُمْ مِنْ إِيرَادِ كَلَامٍ ذِي وَجْهَيْنِ أَنْ يُرْضُوا الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيُرْضُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُوءِ نِيَّتِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ وَيُرْضُوا قَوْمَهُمْ، فَلَا يَجِدُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةً))[٢١].

وقد صَرَّحَ بعضُ المحدثين بأَنَّ الآيةَ الكريمةَ تَتضمَّنُ فَنَّ الإِبهامِ أَو فَنَّ الكَلامِ الموجَّهِ، وَمِنهم الأُستاذُ محمودُ بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ=١٩٥٧م)؛ إذ قال: ((الإبهام أو الكلام الموجَّه: في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾. وهو كلامٌ ذو وَجْهَين -محتملٌ للشَّر والخير -ويُسمَّى في البديع بالتَّوجيهِ. واحتماله للشَّرِّ بأَن يُحمَلَ على مَعنى اسمع مَدعوًّا عليك بألا سمعت، أو

(٢٠) البحر المحيط: ٣/ ٦٦٢.

(٢١) التحرير والتنوير: ٥/ ٧٦.

اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. واحتمالُه للخيرِ بأن يُحمَلَ على معنى (اسمع) مِنَّا (غير مسمع) مكروها، مِن قولهم: أسْمَعَه فلان إذا سبه. وقد كانوا لعنهم اللهُ تعالى يُخاطِبونَ بذلك رسولَ الله ﷺ استهزاءً مُظهرين المعنى الأخيرَ وهم يُضمِرونَ سواه))[٢٢].

وممَّن صَرَّحَ بوجودِ هذا الفنِّ في هذه الآيةِ أيضًا الأُستاذُ محيي الدِّين درويش (ت ١٤٠٣هـ=١٩٨٣)؛ إذ قال: ((اشتملت هذه الآيةُ على فَنٍّ فريدٍ نُسمِّيه: الإبهامَ أو الكلامَ الموجَّهَ أو المحتملَ للضِّدَّين، وهو الإتيان بكلامٍ يحتملُ معنيين مُتضادَّين بحيث لا يتميز أحدُهما مِن الآخَرِ، وهو قولُه: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ فهو ذُو وَجْهَين: وَجْهٌ يَحتملُ الذَّمَّ: أي استمع مِنَّا مَدعوًّا عَلَيك بِلا سمعت، أَي: أَصابَكَ اللهُ بِالصَّمم: الموت. ولعلَّه هو المراد هنا لما انطوا عليه من خِسَّة. ووَجْهٌ يَحتملُ المدْحَ: أي اسمع غير مسمع مكروها))[٢٣].

٢- ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[سورة النساء: ١٢٧].

يَحتملُ قولُه تَعَالى: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ وَجْهَين؛ وذلك لأَنَّ الفعلَ (رغبَ) يَتعدَّى بحرفَي الجرِّ: (في، وعن)، فيتعدَّى بالحرفِ الأَوَّلِ (في) للتَّعبيرِ عن إرادةِ الشَّيءِ والرَّغبةِ فيه، وَيتعدَّى بالحرف الثَّاني: (عن) للتَّعبيرِ عن تركِ الشَّيءِ وبُغْضِه، وقد التفَتَ المفسِّرونَ إلى هذين الوَجْهَيْن، وأَنَّهما يَنتجان مِن أَثرِ اختلافِ تقديرِ حرفِ الجرِّ على كلِّ وَجْهٍ، وهو بطبيعةِ الحالِ نابِعٌ مِن خَصائصِ التَّركيب؛ قال الثَّعلبيُّ (ت ٤٢٧هـ): ((﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُن ﴾، أَي: وترغبونَ عن

(٢٢) الجدول في إعراب القرآن: ٥/ ٥٣-٥٤.

(٢٣) إعراب القرآن وبيانه: ٢/ ٢٢٧.

نِكاحِهنَّ لملكِهنَّ، وقيلَ: ترغبونَ في نِكاحِهنَّ لمالِهنَّ))[٢٤]. وقد بيَّن الزَّمخشريُّ هذه الاحتماليَّةَ النَّاتجَةَ من حذفِ حرفِ الجرِّ، قال: ((﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُن﴾ يَحتملُ في أن تنكحوهُنَّ لجمالِهنَّ، وعَن أن تنكحوهُنَّ لِدَمامتِهنَّ))[٢٥]. وهو ما أَكَّدَهُ القُرطبيُّ (ت٦٧١هـ)، قال: ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أَيْ وَتَرْغَبُونَ عَنْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، ثُمَّ حُذِفَتْ (عَنْ). وَقِيلَ: وَتَرْغَبُونَ فِي أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ثُمَّ حُذِفَتْ (فِي)))[٢٦]. ويرى الطَّاهر بن عاشور أَنَّ هذا الاستعمالَ هنا مَقصودٌ من بابِ استعمالِ اللَّفظِ المشتركِ في مَعنييه، قال: ((وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ يَجِيءُ التَّقْدِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الِاحْتِمَالَيْنِ فِي قَوْلِهِ:.. ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾. مَقْصُودَيْنِ عَلَى حَدِّ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ))[٢٧]. فهو يُشيرُ هنا إلى أَنَّ النصَّ الكريمَ أرادَ المعنيين فَجمعَ بينهما في هذا التَّعبيرِ البليغِ المعجزِ، وكأَنَّه مظهَرٌ من مَظاهرِ التَّوسُّع في التَّعبيرِ وصُورةٌ من صُوره، فيكون هذا التَّعبيرُ رسالةً لُغويَّةً تَشريعيَّةً تُعالجُ الأمرين معًا: التعاملَ مع اليَتيماتِ الجميلاتِ المرغوبِ في الزَّواجِ بهنَّ واليَتيماتِ المرغوبِ عنهن، وذلك بالإفادةِ من خَصائصِ اللُّغةِ وضَوابطِها في بابِ التَّعدِّي واللُّزوم. وقد صَرَّحَ الأُستاذُ مُحيي الدِّين درويش بوُجودِ فَنِّ الكلامِ الموجَّهِ في الآيةِ قَالَ: ((في هذهِ الآيةِ

(٢٤) الكشف والبيان: ٣/ ٣٩٤، وينظر: النكت والعيون: ١/ ٥٣٢، وتفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٠، وتفسير البغوي: ١/ ٥٦٣، والمحرر الوجيز: ٢/ ١١٨، وإعراب القرآن للباقولي: ١/ ١٢٥، وزاد المسير: ١/ ٤٨٠، ومفاتيح الغيب: ١١/ ٢٣٤، وأنوار التنزيل: ٢/ ١٠٠، ومدارك التنزيل: ١/ ٤٠٠، والبحر المحيط: ٤/ ٨٤، واللباب في علوم الكتاب: ٧/ ٤٩، والبرهان في علوم القرآن ٢/ ٢١٠، والجواهر الحسان: ٢/ ٣٠٥، والإتقان في علوم القرآن ٣/ ٥٩، ومعترك الأقران: ١/ ١٦٤.

(٢٥) الكشاف: ١/ ٥٧٠.

(٢٦) تفسير القرطبي: ٥/ ٤٠٢-٤٠٣.

(٢٧) التحرير والتنوير: ٥/ ٢١٤.

الكلامُ الموجَّهُ،... ، وذلك في قَولِه: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، فَهُنَّ إِمَّا جَميلاتٌ أَو دَميماتٌ حسب تَقديرِ الجارِّ))[٢٨].

٣-﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [سورة القصص: ١٢].

يَحتملُ قَولُه تَعالى: ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ وَجْهَين؛ فيَحتملُ أَن يَعودَ الضَّميرُ في (له) على مُوسى عليه السلام، وهو ما يَتَبادرُ إِلى الذِّهْنِ مِن سِياقِ النَّصِّ والقِصَّةِ، كما يَحتملُ أَن يَعودَ على الملكِ. وقد أَشارَ إِلى هذين الاحتمالَين كَثيرٌ مِن المفسِّرينَ القُدماء، ومنهم الطَّبريُّ (ت٣١٠هـ)؛ إِذ قالَ: ((وقولُه: ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ ذَكَرَ أَنَّها أُخِذَتْ، فقيل: قد عرفْته، فقالت: إِنَّما عَنَيتُ أَنَّهم للمَلِكِ ناصحون))[٢٩].

في حين ذكر الماورديُّ (ت ٤٥٠ هـ) أَنَّ أُختَ مُوسى عليه السلام احتجَّت على أَنَّ المرادَ بالضَّميرِ في (له) هو الملكُ وليسَ الطِّفلَ: (مُوسى) بأَنَّها تَعرِفُ أَهْلَ المرْضِعَةِ وَأَنَّهم حَريصُونَ على مَسَرَّةِ الملك، قال: ((فَقَالُوا لها عِندَ قَوْلِها لهم: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾وَمَا يُدْريكِ؟. لَعَلَّكِ تَعرفينَ أَهلَه، فَقالت: لا وَلكنَّهُم يَحرِصُونَ على مَسَرَّةِ الملكِ وَيَرغَبُونَ في ظِئرِه))[٣٠]. وَقَد عَدَّ الكرمَانيُّ (ت نحو ٥٠٥هـ) مَا ذَكَرَه المفسِّرُونَ في تَفسيرِ هذا الموضعِ مِن غَرائِبِ التَّفسيرِ، قال: ((قَولُه: ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾، أَي لا يُقَصِّرُونَ في تَربيتِهِ وَإِرضَاعِهِ. الغريب:

(٢٨) إعراب القرآن وبيانه: ٢/ ٣٣٣.

(٢٩) تفسير الطبري: ١٩/ ٥٣٤، وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ١٣٥، ومعاني القرآن للنحاس: ٥/ ١٦٣، والكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٧/ ٢٣٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤٤، والكشاف: ٣/ ٣٩٦، وزاد المسير: ٣/ ٣٧٧، ومفاتيح الغيب: ٢٤/ ٥٨٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ١٧٣، و مدارك التنزيل: ٢/ ٦٣٢

(٣٠) النكت والعيون: ٤/ ٢٣٩، وينظر: التفسير الوسيط: ٣/ ٣٩٢، وتفسير البغوي: ٣/ ٥٢٥، وتفسير القرطبي: ١٣/ ٢٥٧، وتفسير ابن كثير: ٥/ ٢٨٦، والجواهر الحسان في تفسير القرآن ٤/ ٥٤، و معترك الأقران: ٣/ ٦٧، و إرشاد العقل السليم: ٧/ ٥.

ذُكِرَ أَنَّ هامانَ لما سَمِعَ قولَها ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، قَالَ: خُذُوهَا حَتَّى تُخْبِرَ بقصَةِ هذا الغُلام، فأَلْهَمَها اللهُ، فقالت: إِنَّما ذكرتُ له ناصحُونَ لِفرعونَ لا لغَيره. فقال: صَدَقْتِ))[٣١]. وقد رَسَمَ أَبُو حَيَّان الأندلسيُّ (ت ٧٤٥ هـ) -في سِياقِ تَفسيرِ هذه الآيةِ-صُورةً للحَدَثِ بِعِبَارَةٍ أكثرَ تَفصيلًا -ممَّا مرَّ بنا عندَ الماورديُّ -عن طَريقِ عَرضِهِ على شَكْلِ قِصَّةٍ لها شُخُوصٍ وَلِكُلٍّ مِنْهُم حِوَارُه، قال: ((فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَتَعَلَّقُوا بِهَا وَقَالُوا: أَنْتِ تَعْرِفِينَ هَذَا الصَّبِيَّ؟. فَقَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْحِرْصَ عَلَى التَّقَرُّبِ إِلَى الْمَلِكَةِ وَالْجِدِّ فِي خِدْمَتِهَا وَرِضَاهَا، فَتَرَكُوهَا وَسَأَلُوهَا الدَّلَالَةَ فَجَاءَتْ بِأُمِّ مُوسَى فَلَمَّا قَرَّبَتْهُ شَرِبَ ثَدْيَهَا فَسُرَّتْ آسِيَةُ))[٣٢]. وَيَتبيَّنُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ هذا التَّعْبيرَ كَشَفَ عمَّا في نفسِ أُخْتِ مُوسَى مِن مَعرفَةٍ بِالطِّفلِ وَأَهلِهِ الحَقيقيينَ، وهذا كانَ سَيُؤدِّي بالطِّفْلِ وَأَهلِهِ إلى القَتْلِ، وهُوَ ما لم تَكُن تُريدُه طَبْعًا. وهُنَا أَعْمَلَتْ أُخْتُ مُوسَى عليه السلام ذَكَاءَهَا في التَخَلُّصِ مما دَلَّ عليه ظَاهِرُ التركيبِ الَّذي وَرَدَ على لِسَانِها باللُّجُوءِ إلى التَّأويلِ مُفيدةً في الوُصولِ إلى ذلك من إبهَامِ الدَّلالةِ النَّاتجِ من استعمالِ الضَّميرِ وَغُموضِ المعنى في تَحديدِ مَرجعِهِ وَصَاحِبِه. فَالضَّميرُ (الهاء) في: (له) مُبهَمٌ شَأنُه شَأنُ الضَّمائرِ الأُخرى، تَتبيَّنُ دلالتُه بِمَرجعِه، وَمِن ثَمَّ فهُو يَحتملُ أَن يَعُودَ على مُوسَى عليه السلام وَيَحتملُ أَن يَعودَ على الملك.

وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو حَيَّان إلى أَنَّ الظَّاهِرَ من الضَّميرِ أَنَّه يَعودُ على مُوسَى عليه السلام، ويَحتملُ أَن يَعودَ على (فِرعَون)، وَأَرْجعَ سببَ تَعَدُّدِ الاحتِمَالاتِ الدَّلاليَّة، في هذا التَّعبيرِ القُرآنيِّ، قال: ((وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي لَهُ عَائِدٌ عَلَى مُوسَى. قِيلَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ الطِّفْلُ فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِ مِنْ جُمْلَتِهِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: تَأَوَّلَ الْقَوْمُ أَنَّ الضَّمِيرَ

(٣١) غرائب التفسير وعجائب التأويل: ٢/ ٨٦٤.

(٣٢) البحر المحيط: ٧/ ٣٣٢.

للطِّفْلِ فَقَالُوا لَهَا: إِنَّكِ قَدْ عَرَفْتِيهِ، فَأَخْبِرِينَا مَنْ هُوَ؟. فَقَالَتْ: مَا أَرَدْتُ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَاصِحُونَ لِلْمَلِكِ، فَتَخَلَّصَتْ مِنْهُمْ بِهَذَا التَّأْوِيلِ))[٣٣].

وَقَد بَيَّنَ السَّمينُ الحَلَبيُّ أَنَّ هذا الاستعمالَ يُسَمَّى بِالكَلامِ المُوَجَّهِ عِندَ عُلَماءِ البَيَانِ، قال: ((قولُه: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ الظَّاهرُ أَنَّه ضَميرُ مُوسَى. وَقِيلَ: لِفرعون. وَمِن طَرِيفِ مَا يُحكَى: أَنَّها لَمَّا قَالَتْ لهم ذلك اسْتنكَرُوا حَالَها وَتَفرَّسوا أَنَّها قَرابَتُه. فَقَالَتْ: إِنَّما أَردْتُ: وَهُم للمَلِكِ نَاصِحونَ. فَتخلَّصَتْ منهم. قالَه ابنُ جريج. قُلتُ: وَهَذا يُسَمَّى عند أَهلِ البَيانِ «الكَلامَ المُوَجَّه»))[٣٤]. وَقَدْ نَقَلَ ابنُ عَادِلٍ الحَنبلِيُّ (ت ٧٧٥هـ) هذا الكَلامَ في تَفسيرِه[٣٥]. وَذَكرَ الزَّركشيُّ (ت٧٩٤هـ) هذه الآيَةَ شَاهِدًا على فَنِّ التَّوجيهِ أَو الكَلامِ الموجَّه، وَنَاقَشَ اعْتِراضًا قَد يَرِدُ عَليهَا وَهُوَ أَنَّ أُخْتَ مُوسَى عليه السلام لم تَكُن تَتَحَدَّثُ العَرَبِيَّةَ وهذا الفَنُّ إِنَّما يَكونُ بِلُغةِ العَرَب، وَرَدَّ على هذا الاعتِرَاضِ بِأَنَّ الآيَةَ حِكَايَةٌ مُطَابِقَةٌ لِكَلامِهَا وإِنْ كانتْ بِلُغَةٍ أُخرى، قال: ((وَأَمَّا التَّوْجِيهُ وَهُوَ مَا احْتَمَلَ مَعْنيَيْنِ وَيُؤْتَى بِهِ عِنْدَ فِطْنَةِ الْمُخَاطَبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أُخْتِ مُوسَى عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِي لَهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِمُوسَى وَأَنْ يَكُونَ لِفِرْعَوْنَ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَبِهَذَا تَخَلَّصَتْ أُخْتُ مُوسَى مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّكِ عَرَفْتِهِ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ نَاصِحُونَ لِلْمَلِكِ وَاعْتُرِضَ عَلَيْهِ بِأَنَّ هَذَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَا فِي كلامها المحكي وَهَذَا مَرْدُودٌ فَإِنَّ الْحِكَايَةَ مُطَابَقَةٌ لِمَا قَالَتْهُ وَإِنْ كَانَتْ بِلُغَةٍ أُخْرَى))[٣٦]. وَقَد رَدَّ الآلوسيُّ (ت ١٢٧٠هـ) هذا الاعتِرَاضَ بِالرَّدِّ نَفْسِه، وَأَضَافَ في رَدِّه أَنَّ الفراعِنَةَ من بَقَايَا العَمَالِقَةِ وكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ العَرَبِيَّةَ، وَلَعَلَّ أُخْتَ مُوسَى كَلَّمَتْهُم بِلِسَانِهِم،

(٣٣) البحر المحيط: ٨/ ٢٩١.
(٣٤) الدر المصون: ٨/ ٦٥٥.
(٣٥) اللباب في علوم الكتاب: ١٥/ ٢٢٣.
(٣٦) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٣١٤-٣١٥.

قال: ((﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ لا يُقَصِّرُونَ في خِدْمَتِهِ وَتَربِيَتِهِ، وَرُوِيَ أَنَّ هَامَانَ لما سَمِعَ هذا مِنْهَا قَالَ إِنَّهَا لَتَعْرِفُه وَأَهْلَهُ فَخُذُوهَا حَتَّى تُخْبِرَ بِحَالِهِ فقالت إِنَّمَا أَرَدْتُ وَهُم لِلمَلِكِ نَاصِحُونَ فَتخلَّصَت بِذَلكَ مِن الشَّرِّ الَّذي يَجوزُ لمثْله الكَذب وَأَحْسَنت، وَلَيس بِبِدْعٍ لأَنَّها مِن بَيتِ النُّبُوَّةِ فَحَقيقٌ بها ذلك، وَاحْتِمَالُ الضَّمِيرِ لأَمْرَين ممَّا لا تَختصُّ به اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ بل يَكُونُ في جَمِيعِ اللُّغَاتِ على أَنَّ الفَراعِنَةَ مِن بَقَايَا العَمَالِقَةِ وكَانُوا يَتَكلَّمُونَ بالعَربيَّةِ فَلَعَلَّهَا كَلَّمت بِلِسانِهم وَيُسَمَّى هذا الأُسْلُوبُ مِن الكَلامَ المُوَجَّهَ))[٣٧].

٤- ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٦٥].

يَذْكُرُ أَغلَبُ المفسِّرينَ أَنَّ المقصُودَ بقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ هُم المَنافقُونَ الَّذينَ يَحلِفُونَ بِاللهِ أَنَّهُم مِنْكُم، وَلَكِنَّهم لَيسُوا مِن أَهْلِ دِينِكم بَلْ هُم أَهْلُ شَكٍّ وَنِفَاقٍ، وَإِنَّما يُظْهِرونَ الإِيمانَ خَوفًا منكم لأَنَّهُم قَومٌ يَفرقُونَ، قال الطبريُّ: ((يَقُولُ تَعَالى ذِكْرُه: وَيَحلفُ باللهِ لَكم، أَيُّها المؤمنونَ، هُؤلاءِ المَنَافِقُونَ كَذِبًا وَبَاطِلا خَوفًا مِنكم: (إِنَّهم لمنْكُم) في الدِّينِ والمِلَّةِ. يَقُولُ اللهُ تَعَالَى، مُكَذِّبًا لهم: (وَمَا هُم مِنْكُم)، أَي لَيسُوا مِن أَهلِ دِينكم وَملَّتِكم، بَلْ هُم أَهْلُ شَكٍّ وَنِفَاقٍ (وَلَكِنَّهُم قَوْمٌ يَفرقُونَ)، يَقولُ: وَلكنَّهُم قَومٌ يَخَافُونَكُم، فَهُم خَوفًا مِنْكُم يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهم: (إِنَّا مِنْكُم)، لِيَأْمَنُوا فِيْكُم فَلا يُقْتَلوا))[٣٨].

وَقَد أَكَّدَ أَبو حَيَّان هَذا المعنى وَاسْتَدَلَّ عَلى أَنَّه المرادُ مِن الآيةِ لأَنَّ النَّصَّ وَصَفَهُم بِخِلافِ مَا عَلَيهِ المؤمنونَ، قَالَ: ((قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ وَما هُمْ مِنْكُمْ بَلْ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الْحُكْمِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالنِّفَاقِ، فَهُمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ. وَلَيْسَ الْمَعْنَى

(٣٧) روح المعاني: ١٠/ ٢٦٠.

(٣٨) جامع البيان: ١٤/ ٢٩٧ -٢٩٨، وينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٤٥٤، والكشاف: ٢/ ٢٨١، ومفاتيح الغيب: ١٦/ ٧٤، وتفسير القرطبي ٨/ ١٩٩، وأنوار التنزيل: ٣/ ٨٥.

عَلَى التَّبْعِيضِ حَقِيقَةً لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ وَوَصَفَهُمْ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَالْمَعَاصِي، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، لِأَنَّ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ قُدْرَةٍ وَلَا أَفْعَالٍ ظَاهِرَةٍ، وَذَلِكَ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَعِزَّتِهِ))[٣٩].

فَقَد وَصَفَهم النَّصُّ بِمَا يَدلُّ على مُضَادَّةِ حَالِهم لِحَالِ المؤمنين[٤٠].

في حين ذَهبَ الطَّاهِرُ بنُ عاشور إلى أَنَّ قولَه: ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ صَالِحٌ لأَنْ يَكونَ من الكَلام الموجَّه، لأَنَّه يَحتملُ مَعنيين: الأَوَّل: أَنَّهم قَومٌ مُنافقُونَ لَيسُوا من أَهْلِ دِينكم وَيَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهم منْكُم خَوفًا على أَنْفُسِهم من القَتْلِ، والمعنى الآخَرُ، هُو أَنَّهم لَيسُوا منْكُم لأَنَّهم قَومٌ مُتَّصِفُونَ بِالجُبنِ، وهي صِفةٌ لا تَنطبقُ على المؤمنينَ لأَنَّهم شُجعَانٌ يَتَّصِفُونَ بالعِزَّة، قال ((وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ لِصَلَاحِيَّتِهِ لِأَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَيْضًا وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مُتَّصِفُونَ بِصِفَةِ الْجُبْنِ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ صِفَتِهِمُ الشَّجَاعَةُ وَالْعِزَّةُ، فَالَّذِينَ يَفْرَقُونَ لَا يَكُونُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،...، وَرُبَّمَا كَانَتِ الْآيَةُ الْمَذْكُورَةُ عَقِبَهَا أَوْفَقَ بِهَذَا الْمَعْنَى. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اخْتِلَافَ الْخُلُقِ مَانِعٌ مِنَ المواصلة والموافقة))[٤١].

وَيَبْدُو أَنَّ الطَّاهِرَ قد رَجَّحَ المعنى الثَّاني بِأَنَّ الآيةَ الَّتي جاءَتْ بَعدَها أَكثرُ مُوافَقَةً لهذا المعنى، وَهِيَ قَولُه تَعَالَى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٥٧]، مُسْتَنْبِطًا من الآيةِ أَنَّ اخْتِلافَ الخُلُقِ وَالطَّبْعِ بَيْنَ النَّاسِ مَانِعٌ من تَوَافُقِهم.

٥- ﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٧٧].

يَذْكُرُ المفسِّرونَ أَنَّ مَعْنَى قَولِه

(٣٩) البحر المحيط: ٥/ ٤٥٥.

(٤٠) محاسن التأويل ٥/ ٤٥٠.

(٤١) التحرير والتنوير: ١٠/ ٢٣٠.

تَعَالَى: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هُوَ أَنَّ يُوسفَ عليه السلام قَالَ لَهُم رَدًّا عَلَى دَعْوَاهم: ((أَنْتُم شَرٌّ عِنْدَ الله مَنزلًا مِمَّن وَصَفْتُمُوه بِأَنَّه سَرَقَ، وَأَخْبَثُ مَكَانًا بما سلف من أفعالكم))[٤٢]. وَهَذا التَّفسيرُ يَنظُرُ في الحَقِيقَةِ إلى مَقصدِ المتَكلِّم وَهُوَ يُوسفُ عليه السلام، في ضَوْءِ ما يَعرِفُه عن تَارِيخِهم وَأَفْعَالِهم، وَفي ضَوْءِ مَا يَجُولُ في نَفْسِه من مَشَاعِرِ الأَلَمِ وَالغَضَبِ ممَّا فَعَلَه به إخوتُه وَمَا قَالُوه عنه وَهُم غَيرُ عَارِفِينَ بِحَقِيقَةِ مَن يُخَاطِبُونَ. وَقَد أَنْتَجَتْ هذه القِرَاءَةُ للنَّصِّ الكريم وَجْهًا وَاحِدًا، يُوازِنُ بَيْنَ مَكَانَةِ إخوته من جهةٍ وَمَكَانَةِ أَخِي أَخِيهم، وَهُو يُوسُفُ، الَّذِي ادَّعَوا عليه السَّرِقَةَ كَذِبًا. وَلَكِنَّ بعضَ المفسِّرِينَ وَجَدَ أَنَّ هذه العِبَارَةَ تَحتمِلُ وَجْهَين، لأَنَّها كَلامٌ مُوَجَّهٌ فيه مَعنيان، الأَوَّل: إنَّ مَكانتكم عندَ الله أَدْنَى من مَكَانَةِ أَخِي أَخيكم الَّذي ذَكَرتُم وَنَسبْتمُوه إِلَى السَّرِقَة، والآخَرُ: أَنتُم -لِمَا قُمتُم به من ظُلْم أَخيكم وَعقوقِ أَبيكم-أَسوَأُ صُنْعًا وَفِعْلًا. وَقَد اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ بعضِ المفسِّرينَ في التَّعبيرِ عن هَذين المعنيَين، وَمن ذلك مَا وَرَدَ عندَ الماورديِّ، قال: ((وَفي قَوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وَجْهَان: أَحَدُهُما: أَنْتُم شَرٌّ مَنْزِلَةً عندَ الله مِمَّن نَسبْتُمُوه إلى هذه السَّرِقَة. الثَّاني: أَنتُم شَرٌّ صُنْعًا لِمَا أَقْدَمتُم عَلَيْه من ظُلْم أَخيكم وَعُقوقِ أَبيكم))[٤٣].

وَقَد وَضَّحَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشور فَائدةَ الكَلام المُوَجَّه وَالغَايَةَ من اسْتِعْمَالِه، قَالَ: ((وَهُوَ كَلام مُوَجَّهٌ لَا يَقْتَضِي تَقْرِيرَ مَا نَسَبُوهُ إِلَى أَخِي أَخِيهِمْ، أَيْ أَنْتُمْ أَشَدُّ شَرًّا فِي حَالَتِكُمْ هَذِهِ لِأَنَّ سَرِقَتَكُمْ مُشَاهَدَةٌ وَأَمَّا سَرِقَةُ أَخِي

(٤٢) جامع البيان: ١٦/ ٢٠٠. وينظر: الكشاف: ٢/ ٤٩٣، والمحرر الوجيز: ٣/ ٢٦٧ -٢٦٨، ومفاتيح الغيب: ١٨/ ٤٩١، وتفسير القرطبي: ٩/ ٢٤٠، و أنوار التنزيل: ٣/ ١٧٢، و البحر المحيط: ٦/ ٣٠٩، و اللباب في علوم الكتاب ١١/ ١٧٥، و الجواهر الحسان: ٣/ ٣٤٤، و إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٩٩، و روح المعاني: ٧/ ٣٢.

(٤٣) النكت والعيون ٣/ ٦٥، وينظر: زاد المسير: ٢/ ٤٦٠.

أَخِيكُمْ فَمُجَرَّدُ دَعْوَى، وَفِعْلُ قالَ يُرَجِّحُ هَذَا الْوَجْهَ))[٤٤].

٦- ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ٥١- ٦١].

إنَّ الجَمْعَ بَيْنَ آرَاءِ المفسِّرينَ في تَفْسيرِ قَولِه تَعَالَى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَكُونَ له مَعنيانِ، الأَوَّل: أَنَّ المرادَ بالاهتِدَاءِ مَادِّيٌ، أَي أَنْ تَهتدُوا إلى السُّبُلِ الَّتي جَعَلَها اللهُ لكم في الأَرْضِ، وَمِن ذَلكَ مَا وَرَدَ في كَلامِ الطَّبَرِيِّ، قَالَ: ((وقولُه ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ يقولُ: لكي تَهتدُوا بهذه السُّبُلَ الَّتي جَعَلَهَا لَكم في الأَرْضِ إلى الأَمَاكِنِ الَّتي تَقْصِدُونَ والمَوَاضِعِ الَّتي تُرِيدُونَ، فَلا تَضِلُّوا وَتَتَحَيَّرُوا))[٤٥]. وَالمعنى الآخَرُ: أَنَّ المرادَ بالاهتِدَاءِ مَعْنَوِيٌّ، أي أَنْ تَهتَدُوا إلى دِينِ اللهِ الحَقِّ، قَالَ أَبُو حَيَّان: ((وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. وَقِيلَ: تَهْتَدُونَ أَيْ: بِالنَّظَرِ فِي دَلَالَةِ هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتِ عَلَى صَانِعِهَا، فَهُوَ مِنَ الْهِدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَدِينِ اللَّهِ))[٤٦]. وَقَد الْتَفَتَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشور إلى هَذينِ الوَجْهَين، مُبيِّنًا أَنَّ هَذا من بَابِ الكَلامِ المُوَجَّه، قَالَ: ((وَجُمْلَةُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ مُعْتَرِضَةٌ، أَيْ رَجَاءَ اهْتِدَائِكُمْ. وَهُوَ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ يَصْلُحُ لِلِاهْتِدَاءِ إِلَى الْمَقَاصِدِ فِي الْأَسْفَارِ مِنْ رَسْمِ الطُّرُقِ وَإِقَامَةِ الْمَرَاسِي عَلَى الْأَنْهَارِ وَاعْتِبَارِ الْمَسَافَاتِ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ جَعْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ بِإِلْهَامِهِ. وَيَصْلُحُ لِلِاهْتِدَاءِ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَهُوَ دِينُ التَّوْحِيدِ، لِأَنَّ فِي تِلْكَ الْأَشْيَاءِ دَلَالَةً عَلَى الْخَالِقِ الْمُتَوَحِّدِ بِالْخَلْقِ))[٤٧]. وَقَريبٌ منهُ مَا ذَكَرَه الطَّاهِرُ نَفْسُه أيضًا في كَلامِه عَلَى (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) من قَولِه تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ

(٤٤) التحرير والتنوير: ١٣/ ٣٤.
(٤٥) جامع البيان: ١٧/ ١٨٤، وينظر: تفسير القرطبي ١٠/ ٩١.
(٤٦) البحر المحيط: ٦/ ٥١٤.
(٤٧) التحرير والتنوير: ١٤/ ١٢٢.

﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠ -٣١]، إذْ قَالَ: ((وَجُمْلَةُ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ مُسْتَأْنَفَةٌ إِنْشَاءً رَجَاءَ اهْتِدَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ فَإِنَّ هَذِهِ الدَّلَائِلَ مُشَاهَدَةٌ لَهُمْ وَاضِحَةُ الدَّلَالَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالاهتداء الاهتداء فِي السَّيْرِ، أَيْ جَعَلْنَا سُبُلًا وَاضِحَةً غَيْرَ مَحْجُوبَةٍ بِالضِّيقِ إِرَادَةَ اهْتِدَائِهِمْ فِي سَيْرِهِمْ، فَتَكُونُ هَذِهِ مِنَّةً أُخْرَى وَهُوَ تَدْبِيرُ اللَّهِ الْأَشْيَاءَ عَلَى نَحْوِ مَا يُلَائِمُ الْإِنْسَانَ وَيُصْلِحُ أَحْوَالَهُ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ مِنَ الْكَلَامِ الموجه))[٤٨].

٧-﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[سورة الأنعام: ١٣٤].

جَاءَ الفِعْلُ (تُوعَدُونَ) مَبْنِيًا لِلْمَجْهُولِ، مِمَّا أَدَّى إِلَى أَنْ يَحتمل المعنى: الوَعْدَ بِالخَيْرِ وَالوَعِيدَ بِالشَّرِّ. وَقَدْ أَوْرَدَ القُرْطبيُّ هَذين الاحتِمَالَيْنِ، قَالَ: ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ» أَوْعَدْتُ» فِي الشَّرِّ، وَالْمَصْدَرُ الْإِيعَادُ. وَالْمُرَادُ عَذَابُ الْآخِرَةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ» وَعَدْتُ» عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ السَّاعَةَ الَّتِي فِي مَجِيئِهَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ فَغُلِّبَ الْخَيْرُ))[٤٩]. وَأَلْمَحَ الرَّازِيُّ إِلى هَذين الوَجْهين، وَلَكِنَّه اسْتَنْبَطَ من الآيةِ الكَرِيمَةِ أَنَّ الوَعْدَ بِالثَّوَابِ وَالخَيْرِ مَجْزُومٌ بِحُصُولِه وَوُقُوعِه، في حين أَنَّ الوَعِيدَ بِالعِقَابِ وَالحِسَابِ قَدْ لا يَقَعُ لأَنَّه مُرْتَبِطٌ بِرَحْمَةِ اللهِ وَإِحْسَانِه، قَالَ: ((فِيهِ احْتِمَالٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّ الْوَعْدَ مَخْصُوصٌ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الثَّوَابِ وَأَمَّا الْوَعِيدُ فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْعِقَابِ فَقَوْلُهُ: إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ يَعْنِي كُلَّ مَا تَعَلَّقَ بِالْوَعْدِ بِالثَّوَابِ فَهُوَ آتٍ لَا مَحَالَةَ فَتَخْصِيصُ الْوَعْدِ بِهَذَا الْجَزْمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَانِبَ الْوَعِيدِ لَيْسَ كَذَلِكَ وَيُقَوِّي هَذَا الْوَجْهَ آخِرُ الْآيَةِ،... ، فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْوَعْدَ جَزَمَ بِكَوْنِهِ آتِيًا وَلَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ مَا زَادَ

(٤٨) التحرير والتنوير: ١٧/ ٥٧.

(٤٩) تفسير القرطبي: ٧/ ٨٨، وينظر: مدارك التنزيل: ١/ ٥٣٩.

عَلَى قَوْلِه: وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنْ جَانِبَ الرحمة والإحسان غالب))[٥٠]. في حين ذَهَبَ الثَّعَالبِيُّ إِلى أَنَّ (مَا تُوْعَدُونَ) في الآيةِ يُرادُ بِهِ الوَعِيدَ لا الوَعْدَ بدَلِيلِ السِّيَاقِ اللَّفْظِيِّ الَّذِي تَضَمَّنَهَا وَالَّذِي يَتَمَثَّلُ بما بَعْدَها في الآيةِ الكَرِيمَةِ نَفْسِهَا من قَولِه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والآيةِ الكَرِيمَةِ اللَّاحِقَةِ، قَالَ: ((وَقَولُه سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾، هُو من الوَعِيدِ بِقَرِينَةِ: وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ، أَي: وَمَا أَنْتُم بِنَاجِينَ هَرَباً فتعجزوا طَالِبَكُم، ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَه نَبِيَّه ﷺ أَنْ يَتَوَعَّدَهم بِقَولِه: اعْمَلُوا، أَي: فَسَترَونَ عَاقِبَةَ عَمَلِكُم الفَاسِدِ، وَصِيغَةُ «افعل» هُنا: هِيَ بِمَعنَى الوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ))[٥١].

وَقَد بَيَّنَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ استِعْمَالَ الفِعْلِ (تُوْعَدُونَ) من بَدِيعِ الفَصَاحَةِ القُرآنِيَّةِ، وَذَهَبَ إِلى أَنَّ قَولَه تَعَالَى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ يُرَشِّحُ أَنَّ المقصُودَ مِن الكَلامِ المُوَجَّهِ في الآيةِ الكَرِيمَةِ هُوَ الوَعِيدُ، قَالَ: ((وَبِنَاءُ تُوعَدُونَ لِلْمَجْهُولِ يُصَحِّحُ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ مُضَارِعَ وَعَدَ يَعِدُ، أَوْ مُضَارِعَ أُوعِدَ، يُوعَدُ وَالْمُتَبَادَرُ هُوَ الْأَوَّلُ. وَمِنْ بَدِيعِ الْفَصَاحَةِ اخْتِيَارُ بِنَائِهِ لِلْمَجْهُولِ، لِيَصْلُحَ لَفْظُهُ لِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ بُنِيَ لِلْمَعْلُومِ لَتَعَيَّنَ فِيهِ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ: بِأَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَا نَعِدُكُمْ، أَوْ إِنَّ مَا نُوعِدُكُمْ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ التَّوْجِيهِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ السَّامِعِينَ مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ وَعِيدَ الْمُشْرِكِينَ يَسْتَلْزِمُ وَعْدًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَقْصُودُ الْأَهَمُّ هُوَ وَعِيدُ الْمُشْرِكِينَ، فَلِذَلِكَ عَقَّبَ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ: وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فَذَلِكَ كَالتَّرْشِيحِ لِأَحَدِ الْمُحْتَمَلَيْنِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ))[٥٢].

٨- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ

(٥٠) مفاتيح الغيب: ١٣/ ١٥٦، وينظر: البحر المحيط: ٤/ ٦٥٢.

(٥١) الجواهر الحسان: ٢/ ٥١٩.

(٥٢) التحرير والتنوير: ٨/ ٨٨.

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة هود:٤٥ -٤٧]..

اخْتَلَفَ المفسِّرُونَ في تَفْسِيرِ قَولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛فَقَد اخْتَلَفُوا في مَعْنَى قَولِه: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) عَلَى أَرْبَعَةِ أَقَاوِيلَ: ((أَحَدُهَا: أَنَّه وُلِدَ عَلى فِرَاشِه وَلَم يَكُن ابْنَه وَكَانَ لِغَيْرِ رِشْدَة ... الثَّاني: أَنَّه ابنُ امْرَأَتِه. الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ ابْنَه، ... قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: مَا بَغَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَط))[٥٣] الرَّابِعُ: أَنَّه لَيسَ مِن أَهْلِكَ الَّذينَ وَعَدْتُكَ أَنْ أُنْجِيهِم مَعَك[٥٤].

(٥٣) النكت والعيون: ٢/ ٤٧٥. وتنظر هذه الأقوال في: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٩٦، ولطائف الإشارات: ٢/ ١٣٩، وتفسير البغوي: ٢/ ٤٥١ -٤٥٢، والمحرر الوجيز: ٣/ ١٧٦، والكشاف: ٢/ ٣٩٩، وزاد المسير: ٢/ ٣٧٧، ومفاتيح الغيب: ١٨/ ٣٥٧، وتفسير القرطبي: ٩/ ٤٧، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٣٧، ومدارك التنزيل: ٢/ ٦٤، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٥، ومحاسن التأويل: ٦/ ١٠٢، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٨٦.

(٥٤) ينظر: النكت في القرآن الكريم: ٢٤٨.

أَمَّا قَولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾، فَفِيهِ أَوجُهٌ، أَوَّلُهَا: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ (إِنَّهُ) عَائِدٌ عَلَى السُّؤَالِ، يَعْنِي أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ عَمَلٌ غير صالح، لِأَنَّه في سؤاله طَلَبَ نَجَاةِ كافِرٍ. ثانِيها: أَنْ يَكُونَ هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى الِابْنِ. وإِذَا كَانَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى الابْنِ فَفِي وَصْفِهِ بِكَوْنِهِ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: انَّه جَعَلَ العَمَلَ وَصْفًا لَه مِن بَابِ الوَصْفِ بِالمصْدَرِ على جِهَةِ المبَالَغَةِ. الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ المُرَادُ أَنَّهُ ذُو عَمَلٍ غير صالح، فَحُذِفَ المُضَافُ (ذو) لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. الثالث: أنه لغير رِشدة[٥٥].

وَلَعَلَّ هَذا الاسْتِعْمَالَ مِن بَابِ الكَلامِ المَوَجَّهِ الَّذِي أُرِيدَ لَه أَنْ يَدُلَّ على أَكْثَرَ مِن مَعْنَى، مِن خِلالِ انْفِتَاحِ مَقْصُودٍ في دَلالاتِ التَّرْكِيبِ يُسَوِّغُه خُلُوُّ التَّرْكِيبِ

(٥٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ١٧٧، ومفاتيح الغيب: ١٨/ ٣٥٧، وزاد المسير: ٢/ ٣٧٨، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٣٦، ومدارك التنزيل: ٢/ ٦٤، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٥، ومحاسن التأويل: ٦/ ١٠٢، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٨٦.

مِن قَرِينَةٍ تُرَشِّحُ إِحْدَى الدَّلالاتِ.

٩- ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [سورة هود: ٥٤ -٥٧].

تَرَكَ اخْتِيَارُ الفِعْلِ (تَوَلَّوْا) أَثَرًا في دَلالَةِ النَّصِّ على وَجْهَين، الأَوَّل انَّه بِمَعْنَى (أَعْرَضُوا) يَعُودُ على قَوم هُودٍ، بِنَاءً على أَنَّ الفِعْلَ (تَوَلَّوا) فِعْلٌ مَاضٍ، والوَجْهُ الآخَرُ: انَّه خِطَابٌ للحَاضِرينَ مِن أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَيسَ لِقَوْمِ هُودٍ، بِنَاءً على أَنَّ (تَوَلَّوا) فِعْلٌ مُضَارِعٌ أَصْلُه تَتَوَلَّوا حُذِفَت مِنْه التَّاءُ تَخْفِيفًا[٥٦]. وَقَد بَيَّنَ ابنُ الجَوزيُّ (ت ٥٩٧هـ) هَذين الوَجْهين، قَالَ: ((قَولُه تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ فيه قولان: أَحدُهُما: أَنَّه فِعْلٌ مَاضٍ، مَعْنَاه:... فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُل لَهُم: قَدْ أَبْلَغْتُكم،... وَالثَّاني: أَنَّه خِطَابٌ للحَاضرينَ، وَتَقديرُه: فَإِنْ تَتَولَّوا، فاسْتَثْقَلُوا الجَمْعَ بَيْنَ تَاءَين مُتَحرِّكَتين، فَاقتُصِرَ على إِحدَاهما، وَأُسْقِطَت الأُخْرَى))[٥٧]. وَقَد عَدَّ الطَّاهِرُ بنُ عَاشور هَذا الأُسْلُوبَ، في هذا الموضِع، من بَديع أَسَاليب إِعْجَاز القُرآن الكَريم، قَالَ: ((أَصْلُ تَوَلَّوْا تَتَوَلَّوْا فَحُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ اخْتِصَارًا، فَهُوَ مُضَارِعٌ، وَهُوَ خِطَابُ هُودٍ عليه السلام لِقَوْمِه، وَهُوَ ظَاهِرُ إِجْرَاءِ الضَّمَائِرِ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِعْلًا مَاضِيًا، وَالْوَاوُ لِأَهْلِ مَكَّةَ فَيَكُونُ كالاعتراض في إِجْرَاء الْقِصَّةِ لِقَصْدِ الْعِبْرَةِ،... ، خَاطَبَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ. وَالْفَاءُ الْأُولَى لِتَفْرِيعِ الاعْتِبَارِ عَلَى الْمَوْعِظَةِ وَتَكُونُ جُمْلَةُ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ من

(٥٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٥٨، وإعراب القرآن: ٢/ ١٧٣، وتفسير البغوي: ٢/ ٤٥٣، والكشاف: ٢/ ٤٠٤، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٧٠٤، و أنوار التنزيل: ٣/ ١٣٩، و محاسن التأويل: ٦/ ١١٠

(٥٧) زاد المسير: ٢/ ٣٨١، وينظر: مفاتيح الغيب: ١٨/ ٣٦٥

كَلَام النبي ﷺ مَقُولَ قَوْلٍ مَأْمُورٍ بِهِ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ. وَالتَّقْدِيرُ: فَقُلْ قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ. وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مِنْ قَبِيلِ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ الْمُحْتَمِلِ مَعْنَيَيْنِ غَيْرِ مُتَخَالِفَيْنِ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ أَسَالِيبِ الْإِعْجَازِ، وَلِأَجْلِهِ جَاءَ فِعْلُ تَوَلَّوْا بِتَاءٍ وَاحِدَةٍ))[58]. وَانْطِلَاقًا مِن كَلَامِ الطَّاهِرِ بنِ عَاشُور وَهُو أَحَدُ مُفَسِّرِي القُرآنِ الكَرِيمِ المجتَهِدِينَ المُجَدِّدِينَ يُمكِنُ القَولُ إِنَّ الكَلَامَ المُوَجَّهَ مَظْهَرٌ إِعْجَازِيٌّ مَقْصُودٌ فِي النَّصِّ الكَرِيمِ يُشَقِّقُ الدَّلَالَاتِ وَيُفَرِّعُ المَعَانِي، وَهُوَ مِن ثَمَّ يُعَمِّقُ فَهْمَنَا لِلنَّصِّ وَدَلَالَاتِهِ.

١٠- ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [سورة هود: ٨٢ -٨٣].

يَحتمِلُ الضَّمِيرُ (هي)، في قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾، وَجْهَين، الأَوَّل: أَنْ يَعُودَ على كَلِمَةِ (حِجَارَة)، وَهُو مَا ذَكَرَه أَغْلَبُ المفسِّرِينَ[59]، وَالآخَرُ: أَنْ يَعُودَ على (القَرْيَة) الَّتي أَمْطَرَهَا اللهُ تَعَالَى بِالحِجَارَةِ. وَقَد أَشَارَ الرَّازي إِلى هَذين الوَجْهَين، وَبَيَّنَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَحتمِلُ أَن يَكونَ للقُرى، لأَنَّها كَانَت قَرِيبَةً مِن مَكَّةَ المكَرَّمَة، قَالَ: ((ثُمَّ قَالَ: وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ يَعْنِي بِهِ كُفَّارَ مَكَّةَ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ تَعَالَى يَرْمِيهِمْ بِهَا،... ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: وَما هِيَ لِلْقُرَى. أَيْ وَمَا تِلْكَ الْقُرَى الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ بِبَعِيدٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرَى كَانَتْ فِي الشَّأْمِ، وهي قريب من مكة))[60]. وَكَأَنَّه بِتَعْلِيلِهِ هَذا يَرَى أَنَّه وَجْهٌ ضَعِيفٌ يَحْتَاجُ إِلى تَسْوِيغٍ.

في حين جَعَلَ أَبُو حَيَّان الأَندلسيُّ أَنَّ ظَاهِرَ الضَّمِيرِ (هِيَ) يَعُودُ على القُرَى لا عَلَى الحِجَارَة، قَالَ: ((وَالظَّاهِرُ أَنَّ ضَمِيرَ هِيَ عَائِدٌ عَلَى الْقُرَى الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ أَعَالِيَهَا أَسَافِلَهَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ ذَوَاتِ

(٥٨) التحرير والتنوير: ١٢/ ١٠١ -١٠٢.

(٥٩) جامع البيان: ١٥/ ٤٣٨، ومعاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٧٢، والكشف والبيان: ٥/ ١٨٤، والكشاف: ٢/ ٤١٦، وزاد المسير: ٢/ ٣٩٤، وتفسير القرطبي: ٩/ ٨٣.

(٦٠) مفاتيح الغيب: ١٨/ ٣٨٤.

هَذِهِ الْمُدُن كَانَتْ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّام، يَمُرُّ عَلَيْهَا قُرَيْشٌ فِي مَسِيرِهِمْ، فَالنَّظَرُ إِلَيْهَا وَفِيهَا فِيهِ اعْتِبَارٌ وَاتِّعَاظٌ. وَقِيلَ: هِيَ عَائِدَةٌ عَلَى الْحِجَارَةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ،... ، وَإِذَا كَانَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: وَمَا هِيَ، عائد عَلَى الْحِجَارَةِ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِشَيْءٍ بَعِيدٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِمَكَانٍ بَعِيدٍ، لأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ وَهِيَ مَكَانٌ بَعِيدٌ، إِلَّا أَنَّهَا إِذَا هَوِيَتْ مِنْهَا فَهِيَ أَسْرَعُ شَيْءٍ لُحُوقًا بِالْمَرْمِيِّ، فَكَأَنَّهَا بِمَكَانٍ قريب منه))[٦١]. وَقَدْ جَعَلَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور هَذين الوَجْهَين من فَنِّ الكَلام المُوَجَّه البَعِيد، قَالَ: ((وَضَمِيرُ وَما هِيَ يَصْلُحُ لِأَنْ يَعُودَ إِلَى مَا عَادَتْ إِلَيْهِ الضَّمَائِرُ الْمَجْرُورَةُ قَبْلَهُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى وَمَا تِلْكَ الْقَرْيَة بِبَعِيد من الْمُشْرِكِينَ، أَي الْعَرَب، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَذْهَبْ إِلَيْهَا فَيَنْظُرُ مَصِيرَهَا، فَالْمُرَادُ الْبُعْدُ الْمَكَانِيُّ. وَيَصْلُحُ لِأَنْ يَعُودَ إِلَى الْحِجَارَةِ، أَيْ وَمَا تِلْكَ الْحِجَارَةُ بِبَعِيدٍ، أَيْ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرْمِيَ الْمُشْرِكِينَ بِمِثْلِهَا. وَالْبُعْدُ بِمَعْنَى تَعَذُّرِ الْحُصُولِ وَنَفْيِهِ بِإِمْكَانِ حُصُولِهِ. وَهَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ مَعَ صِحَّةِ الْمَعْنَيَيْنِ وَهُوَ بَعِيدٌ))[٦٢].

١١- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢٣].

يَذْكُرُ المفسِّرُونَ أَنَّ الضَّميرَ (الهاء) في (إِنَّه رَبِّي) يَحتملُ وَجْهَين، الأَوَّل: أَنْ يَعُودَ على اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى[٦٣]، وَالآخَرُ: أَنْ يَعُودَ على العَزِيزِ زَوجِ زُلِيخَا الَّتي رَاوَدَتْهُ[٦٤]. وَقَدْ أَوْرَدَ الماورديُّ هَذين الوَجْهَين مَعًا، قَالَ: ((وَفي ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وَجْهَان: أَحَدُهُمَا: إِنَّ اللهَ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ فَلا أَعْصِيه، قَالَه الزَّجَّاجُ. الثَّاني: أَنَّه أَرَادَ العَزِيزَ قطفير، إِنَّه رَبِّي أَي سَيِّدِي أَحْسَنَ مَثْوَايَ فَلا

(٦١) البحر المحيط: ٦/ ١٩٢ -١٩٢.

(٦٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ١٣٥.

(٦٣) ينظر: مشكل إعراب القرآن: ١/ ٣٨٣، وتفسير القشيري: ٢/ ١٧٨

(٦٤) ينظر: جامع البيان: ١٦/ ٣٢، و مدارك التنزيل: ٢/ ١٠٣

أَخُونُه))[٦٥]. وَهُوَ مَا أَجَازَه الرَّاغِبُ الأَصْفَهَانِيُّ مُرَجِّحًا أَنَّه يَعُودُ على الله تَعَالَى لأَنَّه الأَلْيَقُ بِالنَّصِّ، قَالَ: ((قِيلَ: عَنَى بِهِ اللهَ تَعَالَى، وَقِيلَ: عَنَى بِهِ الملكَ الَّذِي رَبَّاه، وَالأَوَّلُ أَلْيَقُ بِقَوْلِه))[٦٦]. وَبَحَث الزَّمخشريُّ عَن مُسَوِّغٍ للقَوْلِ بِعَودِ الضَّمِيرِ على العَزِيزِ، فَوَجَدَه في قَوْلِه تعَالَى على لِسَانِ العَزِيزِ مُخَاطِبًا زَوْجَه زُلَيخَا: (أَكْرِمِي مَثْوَاه)، قَالَ: ((إِنَّهُ إن الشأن والحديث رَبِّي سيدي ومالكي، يريد قطفير أَحْسَنَ مَثْوايَ حِينَ قَالَ لك أَكْرِمي مَثْوَاه، فَمَا جَزَاؤُه أَن أَخْلفَهُ في أَهْلِه سُوءَ الخلَافَةِ وَأَخُونَه فِيهِم إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الَّذِين يُجَازُونَ الحَسَنَ بِالسَّيِّئ))[٦٧]. وَهُوَ مَا اكْتَفَى بِذِكْرِه الرَّازِي وَتَوَسَّعَ في تَعْلِيلِه بِأَنَّه لا يَلِيقُ، بِالعَقْلِ، أَنْ يُجَازِيَ الإِنسانُ مَن أَحْسَنَ إِلَيه على الإِحْسَانِ بِالخِيَانَة[٦٨]. وَيَرَى أَبُو حَيَّان الأَندلسيُّ أَنَّ الأَصَحَّ من الوَجْهَين هُو أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ على الله تَعَالَى، وَوَصَفَ الرَّأْيَ الآخَرَ بِالبَعِيدِ لأَنَّ الأَنبِيَاءَ لا يُطْلِقُونَ صِفَةَ (رَبّ) على مَخْلُوق، قَالَ: ((وَالضَّمِيرُ في (إِنَّهُ) الْأَصَحُّ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَيْ: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِذْ نَجَّانِي مِنَ الْجُبِّ، وَأَقَامَنِي فِي أَحْسَنِ مَقَام. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ضَمِيرَ الشَّأْنِ وعنى بِرَبِّهِ سَيِّدَهُ الْعَزِيزَ فَلَا يَصْلُحُ لِي أَنْ أَخُونَهُ، وَقَدْ أَكْرَمَ مَثْوَايَ وَائْتَمَنَنِي،...، وَيَبْعُدُ جِدًّا، إِذْ لَا يُطْلِقُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى مَخْلُوقٍ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَلَا بِمَعْنَى السَّيِّدِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ مَمْلُوكًا لَهُ))[٦٩]. في حين ذَهَبَ ابنُ كَثِيرٍ إِلى أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ آنَذاكَ كَانُوا يُطْلِقُونَ صِفَةَ (الرَّبِّ) على (السَّيِّد)؛ قَالَ: ((وَ ﴿قَالَ مَعَاذَ

(٦٥) النكت والعيون: ٣/ ٢٣، وينظر: تفسير البغوي: ٢/ ٤٨٣، والمحرر الوجيز: ٣/ ٢٣٣، وإعراب القرآن للباقولي: ٢/ ٥٦٥، وزاد المسير: ٢/ ٤٢٧، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٦٠، والجواهر الحسان: ٣/ ٣١٩، وإرشاد العقل: ٤/ ٢٦٥، وروح المعاني ٦/ ٤٠٢، ومحاسن التأويل ٦/ ١٦٥

(٦٦) المفردات في غريب القرآن: ٣٣٦.

(٦٧) الكشاف: ٢/ ٤٥٥، وينظر: تفسير القرطبي: ٩/ ١٦٥.

(٦٨) مفاتيح الغيب: ١٨/ ٤٣٨، وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ١١/ ٥٨.

(٦٩) البحر المحيط: ٦/ ٢٥٧.

﴿ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ وَكَانُوا يُطْلِقُونَ (اَلرَّبَّ) عَلَى السَّيِّدِ وَالْكَبِيرِ))[٧٠]. وَقَدْ بَيَّنَ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُور أَنَّ هَذا الاسْتِعْمَالَ مِن الكَلام الموَجَّه تَوجيهًا بَليغًا، قَالَ: ((وَضَمِيرُ إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ، وَيَكُونُ رَبِّي بِمَعْنَى خَالِقِي. وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَعْلُومٍ مِنَ الْمَقَامِ وَهُوَ زَوْجُهَا الَّذِي لَا يَرْضَى بِأَنْ يَمَسَّهَا غَيْرُهُ، فَهُوَ مَعْلُومٌ بِدَلَالَةِ الْعُرْفِ، وَيَكُونُ رَبِّي بِمَعْنَى سَيِّدِي وَمَالِكِي. وَهَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ تَوْجِيهًا بَلِيغًا حُكِيَ بِهِ كَلَامُ يُوسُفَ عليه السلام إِمَّا لِأَنَّ يُوسُفَ عليه السلام أَتَى بِمِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ فِي لُغَةِ الْقِبْطِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ أَتَى بِتَرْكِيبَيْنِ عُذْرَيْنِ لِامْتِنَاعِهِ فَحَكَاهُمَا الْقُرْآنُ بِطَرِيقَةِ الْإِيجَازِ وَالتَّوْجِيهِ))[٧١]. وَيُبَيِّنُ الطَّاهِرُ، هُنَا، أَنَّ هذا التَّعْبِيرَ يَحتمِلُ أَن يَكُونَ وَرَدَ على لِسَانِ يُوسُفَ على هَذِهِ الصُّورَةِ لِيَخْتَزِلَ قَولَين أَوْ عُذْرَيْن اعْتَذَرَ بِهِمَا النَّبِيُّ يُوسُفُ عليه السلام، كَمَا يَحتمِلُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام قَدَّمَ عُذْرَيْنِ بِعِبَارَتَيْنِ وَتَرْكِيبَيْنِ، فَصَاغَهُمَا القُرآنُ الكَرِيمُ بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ تَحتمِلُ المعْنَيَيْنِ بِطَرِيقِ الكَلامِ الموَجَّه.

١٢- ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٤٢].

يُوْرِدُ المفسِّرُونَ في تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ وَجْهَين، بِسَبَبِ مَا يَحتمِلُه الضَّميرُ الهاء في (أَنْسَاهُ، وَرَبِّه)، الوَجْه الأَوَّل: أَنْ يَكونَ المقصُودُ بِهَذين الضَّميرَين هُو النَّبيَّ يُوسُفَ عليه السلام؛ لأَنَّه عَرَضَتْ لَهُ غَفْلَةٌ فَنَسِيَ ذِكْرَ الله؛ لأَنَّه طَلَبَ الاسْتِغَاثَةَ بِالمَلِك[٧٢]، وَالوَجْه الثَّاني: أَنْ يَكُونَ المقصُودُ بِهَذين الضَميرين هُوَ الفَتَى الَّذي ظَنَّ أَنَّه نَاجٍ لأَنَّه نَسِي أَنْ يَذْكُرَ أَمْرَ النَّبيِّ يُوسُفَ أَمَامَ صَاحِبِه المَلِك، وَقَدْ جَمَعَ الماورديُّ

(٧٠) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٧٩.

(٧١) التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٥١ -٢٥٢.

(٧٢) ينظر: جامع البيان: ١٦/ ١١١، ومعاني القرآن وإعرابه: ٣/ ١١٢، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٩.

بَيْنَ هَذين الوَجْهَين، قَالَ: ((فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ يَعْني أَنْسى الشَّيطَانُ يُوسُفَ ذِكْرَ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى ابْتَغَى الفَرَجَ مِن غَيْرِه وَاسْتَعَانَ بِالمَخْلُوق، وَتلكَ غَفْلَةٌ عَرَضَتْ لِيُوسُفَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ،...، وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِسحَاقَ: الهَاءُ راجِعَةٌ في قَوْلِه: فَأَنْسَاهُ الشَّيْطانُ إلى السَّاقِي فَنَقُولُ: أَنْسى الشَّيْطَانُ السَّاقِيَ ذِكْرَ يُوسُفَ للمَلِكِ))[٧٣].

وَذَكَر الرَّازي الوَجْهَين، وَذَهَبَ إلى أَنَّ الحَقَّ مِنْهما الوَجْهُ الأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسى يُوسُفَ ذِكْرَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُسْتَدِلًا على ذَلِكَ بِأَنَّ لَفْظَ الآيَةِ يَدُلُّ على أَنَّ القَوْلَ الثَّاني ضَعِيفٌ، لأَنَّه لَو أَرَادَه لَعَبَّرَ عَنْهُ، قال: ((فِيهِ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى يُوسُفَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَى يُوسُفَ أَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ،... ، الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ إِنَّ قَوْلَهُ: فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ رَاجِعٌ إِلَى النَّاجِي وَالْمَعْنَى: أَنَّ الشيطان أنسى ذَلِكَ الْفَتَى أَنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ لِلْمَلِكِ،...، وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ،...، وَمَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ فِي مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ وَشَرِبَ مِنْ مَشْرَبِ التَّوْحِيدِ عَرَفَ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَأَيْضًا فَفِي لَفْظِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ ذَلِكَ لَقَالَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَهُ لِرَبِّهِ))[٧٤].

في حين ذَهَبَ أَبُو حَيَّان الأَندلسيُّ إلى خِلاف ذَلِكَ؛ إِذْ اخْتَارَ من القَوْلَيْن الثَّاني وَهُوَ أَنْ يَكُونَ النَّاسي هُو النَّاجِيَ وَلَيْسَ النَّبِيَّ يُوسُفَ عليه السلام، لِذَا أَنْكَرَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَرْوِيها كُتُبُ التَّفسير لِتُثبِتَ القَوْلَ الأَوَّلَ الَّذي يَجْعَلُ النَّبِيَّ يُوسُفَ عليه السلام هُوَ النَّاسي، وَمِنْهَا مَا يُرْوَى عَن الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّه قَالَ

(٧٣) الكشف والبيان: ٥/ ٢٢٦، وينظر: النكت والعيون: ٣/ ٤٠، والتفسير الوسيط: ٢/ ٦١٤، وغرائب التفسير وعجائب التأويل ١/ ٥٣٨، وتفسير البغوي: ٢/ ٤٩٣، والكشاف: ٢/ ٤٧٢-٤٧٣، و المحرر الوجيز: ٣/ ٢٤٧، و زاد المسير: ٢/ ٤٤١، وتفسير القرطبي: ٩/ ١٩٧، و أنوار التنزيل: ٣/ ١٦٥، و تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩١، و اللباب في علوم الكتاب: ١١/ ١٠٩ -١١٠، و الجواهر الحسان: ٣/ ٣٢٨، ومحاسن التأويل: ٦/ ٢٥٠ -٢٥١.

(٧٤) مفاتيح الغيب: ١٨/ ٤٦١ -٤٦٢.

عَن يُوسُفَ[٧٥]: (لَوْ لَمْ يَقُلْ -يَعْنِي: يُوسُفَ -الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ: مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ) أَوْ (رَحِمَ اللهُ يُوسُفَ لَولا الكَلِمَةُ الَّتِي قَالَ: اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ)، وَوَصَفَ هَذِه الأَخْبَارَ وَالرِّوَايَاتِ بِأَنَّهَا مِمَّا لا يَلِيقُ بِالأَنْبِيَاءِ، قَالَ: ((وَالَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَّ يُوسُفَ إِنَّمَا قَالَ لِسَاقِي الْمَلِكِ: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى هِدَايَتِهِ وَإِيمَانِهِ بِاللَّهِ، كَمَا تَوَصَّلَ إِلَى إِيضَاحِ الْحَقِّ لِلسَّاقِي وَرَفِيقِهِ. وَالضَّمِيرُ فِي فَأَنْسَاهُ عَائِدٌ عَلَى السَّاقِي، وَمَعْنَى ذِكْرِ رَبِّهِ: ذِكْرُ يُوسُفَ لِرَبِّهِ، وَالْإِضَافَةُ تَكُونُ بِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ. وَإِنْسَاءُ الشَّيْطَانِ لَهُ بِمَا يُوَسْوِسُ إِلَيْهِ مِن اشْتِغَالِهِ حَتَّى يُذْهَلَ عَمَّا قَالَ لَهُ يُوسُفُ، لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِيُوسُفَ مِنْ إِجْزَالِ أَجْرِهِ بِطُولِ مَقَامِهِ فِي السجن،... ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي أَنْسَاهُ عَائِدٌ عَلَى يُوسُفَ. وَرَتَّبُوا عَلَى ذَلِكَ أَخْبَارًا لَا تَلِيقُ نِسْبَتُهَا إِلَى الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ))[٧٦].

وَوَجَدَ الزَّرْكَشِيُّ فِي هَذَا الاسْتِعْمَالِ القُرآنِيِّ نَوْعًا مِن التَّوْرِيَةِ، وَقَدْ حَلَّلَ هَذِهِ التَّوْرِيَةَ وَأَرْجَعَ سَبَبَ احْتِمَالِ كَلِمَةِ (رَبِّه) لِهَذِينِ الوَجْهَينِ إِلى وُرُودِ كَلِمَةِ (رَبِّكَ) السَّابِقَةِ بِمَعْنَى السَّيِّدِ أَوْ المالِك، مِمَّا هَيَّأَ ذِهْنَ المتَلَقِّي لأَنْ يَحتمِلَ فِي كَلِمَةِ (رَبِّه) أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الله، وَهُوَ المعنى المعرُوفُ لَهَا، وَأَنْ تَكُونَ بِمَعنى السَّيِّدِ، وَهُوَ المعْنَى الَّذِي دَلَّ عليه لَفْظُ (رَبِّكَ) المذْكُورُ قَبْلًا، قَالَ: ((وَقَوْلُهُ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، فَإِنَّ لَفْظَةَ (رَبِّكَ) رَشَّحَتْ لَفْظَةَ (رَبِّه) لِأَنْ يكون تَوْرِيَةً إِذْ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا الْإِلَهَ سُبْحَانَهُ وَالْمَلِكَ، فَلَو اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِه: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ ولم تَدُلَّ لَفْظَةُ (رَبِّه) إِلَّا عَلَى الْإِلَهِ فَلَمَّا تَقَدَّمَت لَفْظَةُ (رَبِّكَ) احْتَمَلَ المعْنَيَيْنِ))[٧٧]. وَجَعَلَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور هَذا الاسْتِعْمَالَ مِن بَدِيعِ الإِيْجَازِ

(٧٥) ينظر الحديث في: صحيح ابن حبان- محققا ١٤/ ٨٦، برقم: (٦٢٠٦) باب: (ذِكْرُ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ لَبِثَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ).

(٧٦) البحر المحيط: ٦/ ٢٨٠.

(٧٧) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٤٤٦.

القُرآنيِّ على طَريقِ فَنِّ الكَلام الموَجَّه لأَنَّ أَدَاءَ المعَاني عَن هَذَا الطَّريقِ أَلْطَفُ من التَّصْريح بِهَا، قَالَ: ((وَضَميرَا فَأَنْساهُ وربِّه يَحْتَملَانِ الْعود إِلَى الَّذي، أَيْ أَنْسى الشَّيْطَانُ الَّذي نَجا أَنْ يَذْكُرَهُ لِرَبِّه، فَالذِّكْرُ الثَّاني هُوَ الذِّكْرُ الْأَوَّلُ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّميرَانِ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْه ضَميرُ وَقالَ أَيْ يُوسُفُ عليه السلام أَنْساهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ اللَّه، فَالذِّكْرُ الثَّاني غَيْرُ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ. وَلَعَلَّ كِلَا الاحْتِمَالَيْنِ مُرَادٌ، وَهُوَ مِنْ بَديعِ الْإِيجَاز. وَذَلِكَ أَنَّ نِسْيَانَ يُوسُفَ عليه السلام أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ إِلْهَامَ الْمَلِكِ تَذَكُّرَ شَأْنِه كَانَ مِنْ إِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِه، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَهِيًّا فِي نِسْيَانِ السَّاقِي تَذْكِيرَ الْمَلِكِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِتَابًا إِلَهِيًّا لِيُوسُفَ عليه السلام عَلَى اشْتِغَالِه بِعَوْنِ الْعِبَادِ دُونَ اسْتِعَانَةِ رَبِّه عَلَى خَلَاصِه. وَلَعَلَّ فِي إِيرَادِ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى هَذَا التَّوْجِيهِ تَلَطُّفًا فِي الْخَبَرِ عَنْ يُوسُفَ عليه السلام، لِأَنَّ الْكَلَامَ الْمُوَجَّهَ فِي الْمَعَانِي الْمُوَجَّهَةِ أَلْطَفُ مِنَ الصَّرِيحِ))[٧٨]. وَهُوَ يَرَى أَنَّ كِلَا الاحْتِمَالَيْنِ أَوْ الوَجْهَيْنِ مُرَادٌ هُنَا مِن بَابِ الإِيْجَازِ وَالتَّوَسُّعِ فِي المعَانِي؛ وَذَلِكَ طَلَبًا للتَّعْبِيرِ عَن المعَاني المتَكَاثِرَة بِالأَلْفَاظِ القَلِيْلَة وَالعِبَارَاتِ الموْجَزَة، كَمَا هُوَ أُسْلُوبُ القُرآنِ المعْجِزُ.

١٣- ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٦٣ - ٦٤]

يَذْكُرُ المفسِّرونَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾، هُوَ: أَنْتُم قُلْتُم في أَخيكم يُوسُفَ مَا قُلْتُمُوه وَضَمِنْتُم حِفْظَه، وَخُنْتُم بِمَا قُلْتُم فَهَل آمَنُكُم عَلَى أَخيكم هَذَا؟!.؛ قَالَ الزَّمخشريُّ: ((هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ يُريدُ أَنَّكُم قُلْتُم في يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ كَمَا تَقُولُونَه في أَخيه، ثُمَّ خُنْتُم بِضَمَانِكُم، فَمَا يُؤمنني من مِثْلِ ذَلِكَ))[٧٩]. وَقَدْ بَيَّنَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور

(٧٨) التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٧٨ -٢٧٩.

(٧٩) الكشاف: ٢/ ٤٨٥، وينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ١١٨، ومعاني القرآن

أَنَّ هَذِه العِبَارَةَ مِن الكَلام المُوَجَّه الَّذِي تَحْتمِلُ دَلالَتُه وَجْهَين، قَالَ: ((وَجَوَابُ أَبِيهِمْ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنِّي آمَنُكُمْ عَلَيْهِ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ، وَأَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مَاذَا أَفَادَ ائْتِمَانُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ حَتَّى آمَنُكُمْ عَلَيْهِ. وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ فِيهِ مَعْنَى النَّفْيِ، فَهُوَ يَسْتَفْهِمُ عَنْ وَجْهِ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِمْ: وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْجُمْلَةِ عَلَى احْتِمَالَيْهَا هُوَ التَّفْرِيعُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً)، أَيْ خَيْرٌ حِفْظًا مِنْكُمْ، فَإِنْ حَفِظَهُ اللَّهُ سَلِمَ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظْهُ لَمْ يَسْلَمْ كَمَا لَمْ يَسْلَمْ أَخُوهُ مِنْ قَبْلُ حِينَ أَمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ. وَهُمْ قَدِ اقْتَنَعُوا بِجَوَابِهِ وَعَلِمُوا مِنْهُ أَنَّهُ مُرْسِلٌ مَعَهُمْ أَخَاهُمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُرَاجِعُوهُ فِي شَأْنِه))[٨٠]. وَعَلَيهِ فَإِنَّ مَرجِعَ الاحْتِمَالَ فِي النَّصِّ الكَرِيم هُوَ طَبِيعَةُ الجُملَةِ الاسْتِفْهَامِيَّة، هُنَا، إِذْ يُمكِنُ أَنْ تُفْهَمَ عَلَى أَنَّها إِنْكَارٌ بِنَاءً على مَا فَعَلُوه بِيُوسُفَ فِي المَرَّةِ السَّابِقَة، وَتَحتمِلُ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامًا يُرَادُ مِنْهُ السُّؤَالُ وَتَذْكِيرُهُم بِحِفْظِ أَخِيهِم لِئَلَّا يُصِيبُه مَا أَصَابَ أَخَاهُم يُوسُفَ، لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُ يَعْقُوبَ عليه السلام فَقَط.

١٤- ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩-١٠].

اخْتَلَفَ المفسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ (ذِكْرُكم) الوَارِدِ فِي النَّصِّ الكَرِيم، فَاكْتَفَى بَعْضُ المفسِّرِينَ بِإِعْطَاءِ مَعْنًى وَاحِدٍ لَهُ، وَهُوَ أَنَّه بِمَعْنَى: شَرَفكم[٨١]. وَفَسَّرَه

للنحاس: ٣/ ٤٤٠، ومعاني القرآن للنحاس: ٣/ ٤٤٠، والنكت والعيون: ٣/ ٥٧، ولطائف الإشارات: ٢/ ١٩٣، والتفسير الوسيط: ٢/ ٦٢١، وزاد المسير: ٢/ ٤٥٤، ومفاتيح الغيب: ١٨/ ٤٧٩، وتفسير القرطبي: ٩/ ٢٢٤، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٦٩، والبحر المحيط: ٦/ ٢٩٥، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩٨، واللباب في علوم الكتاب: ١١/ ١٤٦، والجواهر الحسان: ٣/ ٣٣٦، وروح المعاني: ٧/ ١٢، ومحاسن التأويل: ٦/ ١٩٥.

(٨٠) التحرير والتنوير: ١٣/ ١٦.

(٨١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٠، وتأويل مشكل القرآن: ٩٥، و غريب القرآن لابن قتيبة: ٢٣٤، و معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٣٨٥، ولطائف الإشارات:

آخَرُونَ بِمَعْنَى: حَدِيثكم[٨٢]. وَجَمَعَ بَعْضُ المفسِّرِينَ بَيْنَ القَوْلَيْنِ[٨٣]. وَجَعَلَهُ آخَرُونَ بِمَعْنَى شَرَفِكم وَدِيْنِكم[٨٤]، أَوْ بِمَعْنَى شَرَفِكم وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِكم[٨٥]، أَوْ ذِكْرِ دِيْنِكم وآخِرَتِكم وشَرَفِكم[٨٦]. وَذَكَرَ لَهُ مُفَسِّرُونَ آخَرُونَ ثَلاثَةَ أَوْجُهٍ، هِيَ: شَرَفُكم، وَدِينُكم، وَتَذْكِرَةُ آخِرَتِكم من رَجْعَةٍ وَعَذَابٍ[٨٧]، أَوْ شَرَفُكم، وَتَذْكِرَةُ آخِرَتِكم، وَذِكْرُ مَا يَلْزَمُ لِلْفَوْزِ بِالجَنَّةِ[٨٨]. في حِين كَانَ لَهَا خَمْسَةُ تَأْوِيلَاتٍ عندَ آخَرِينَ، هِيَ: حَدِيثُكم، وَمَكَارِمُ أَخْلَاقِكم، وَشَرَفُكم، وَذِكْرُ مَا تَحْتَاجُونَه من أَمْرِ دِيْنِكم، وَالعَمَلُ بِمَا فِيْهِ حَيَاتُكم[٨٩]. وَجَمَعَ مُفَسِّرُونَ آخَرُونَ[٩٠] بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الأَقْوَالِ في تَفْسِيرِ هَذِهِ الكَلِمَةِ في هَذا السِّيَاقِ. وَيَرَى الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ (ذكركم) هُنا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ بما فيه الصَّلاحُ كَمَا يَصْلُح أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى السُّمْعَةِ وَالصِّيْتِ، وَمِن ثَمَّ فَقَدْ ((أُوثِرَ هَذَا الْمَصْدَرُ هُنَا وَجُعِلَ مُعَرَّفًا بِالْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ لِيَكُونَ كَلَامًا مُوَجَّهًا فَيَصِحَّ قَصْدُ الْمَعْنَيَيْنِ مَعًا مِنْ كَلِمَةِ (الذِّكْرِ) بِأَنَّ مَجِيءَ الْقُرْآنِ مُشْتَمِلًا عَلَى أَعْظَمِ الْهُدَى، وَهُوَ تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِمَا بِهِ نِهَايَةُ إِصْلَاحِهِمْ، وَمَجِيئُهُ بِلُغَتِهِمْ، وَفِي قَوْمِهِمْ، وَبِوَاسِطَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، سُمْعَةٌ عَظِيمَةٌ لَهُمْ))[٩١].

١٥- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: ٥٣].

يَحْتَمِلُ قَوْلُه تَعَالَى: ﴿لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ مَعَانِيَ عِدَّةً، يَدُلُّ عَلَيهَا مَا ذَكَرَه المفَسِّرُونَ في تَفْسِيرِهَا[٩٢]. وَقَدْ جَمَعَ

٢/ ٤٩٥، وتفسير البغوي: ٤/ ١٦٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ٤٧.

(٨٢) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٤١٦.

(٨٣) ينظر: الكشف والبيان: ٦/ ٢٧٠، ومحاسن التأويل: ٧/ ١٧٩.

(٨٤) ينظر: تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٣٤.

(٨٥) ينظر: الكشاف: ٣/ ١٠٥.

(٨٦) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٧٥.

(٨٧) ينظر: زاد المسير: ٣/ ١٨٦.

(٨٨) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٢٣.

(٨٩) ينظر: النكت والعيون ٣/ ٤٣٩.

(٩٠) ينظر: البحر المحيط: ٧/ ٤١٢.

(٩١) التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٢.

(٩٢) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ٢٠٦، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٥١، و الكشف والبيان: ٧/ ١١٤، والنكت والعيون: ٤/

ابْنُ عَطِيَّةَ هَذِهِ المعَانِي؛ قَالَ: ((وَقَوْلُه:... يَحْتمِلُ مَعَانِيَ، أَحَدُهَا: النَّهْيُ عَن القَسَم الكَاذِب إِذْ عَرَفَ أَنَّ طَاعَتَهُم دغلَةٌ رَدِيئَةٌ؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لا تُغَالِطُوا فَقَدْ عَرَفَ مَا أَنْتُم عَلَيْه، وَالثَّاني: أَنْ يَكُونَ المعنى لا تَتَكَلَّفُوا القَسَمَ طَاعَة مُتَوَسِّطَة على قَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ أَمْثَلُ وَأَجْدَى عَلَيكم، وَفِي هَذَا الوَجْه إِبْقَاءٌ عَلَيهم، وَالثَّالث: أَنْ يَكُونَ المعنى لا تقْنَعُوا بِالقَسَم طَاعَة تعرف منكم وتظهر عَلَيكم هُو المَطْلُوب مِنْكم، وَالرَّابِع: أَنْ يَكُونَ المعنى لا تقنعوا لأَنْفُسِكم بِإِرْضَائِنا بِالقَسَم، طَاعَة الله مَعْرُوفَةٌ وَشَرْعُه وَجِهَادُ عَدُوِّه مَهْيَعٌ لائِح))[٩٣]. وَيَرَى الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ اللهَ سُبْحَانَه أَمَرَ رَسُولَه أَنْ يُخَاطِبَ المنَافِقِينَ بِهَذِه الكَلِمَاتِ ذَاتِ المعَانِي الكَثِيرَةِ مِن بَابِ الكَلام المُوَجَّه حَتَّى يُؤَدِّي مَعَانِيَ مُحْتَمَلَة عِدَّة؛ فَجِيْءَ بِهَذِه العِبَارَةِ لِتَجْمَعَ كُلَّ هَذِه المعَانِي بِأَخْصَرِ عِبَارَةٍ وَأَوْجَزِهَا، قَالَ: ((أَمَرَ الله رَسُولَه ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ذَاتِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ وَهِيَ: ﴿لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾. وَذَلِكَ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ لِأَنَّ نَهْيَهُمْ عَنْ أَنْ يُقْسِمُوا بَعْدَ أَنْ صَدَرَ الْقَسَمُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَهْيًا عَنْ إِعَادَتِه لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِصَدَدِ إِعَادَتِه،... ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى عَدَمِ الْمُطَالَبَةِ بِالْقَسَمِ،... ، لِعَدَمِ الشَّكِّ فِي أَمْرِكُمْ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا فِي التَّسْوِيَةِ،... ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا فِي حَقِيقَتِه وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ، أَيْ لَا تُقْسِمُوا عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُكُمْ بِذَلِكَ. وَمَقَامُ مُوَاجَهَةِ نفاقهم يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الِاحْتِمَالَاتُ مَقْصُودَةً. وَقَوْلُهُ: طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ كَلَامٌ أُرْسِلَ مَثَلًا وَتَحْتَهُ مَعَانٍ جَمَّةٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ

١١٧، والوجيز للواحدي: ٧٦٨، وتفسير البغوي: ٣/ ٤٢٤، والكشاف: ٣/ ٢٥٠، وزاد المسير: ٣/ ٣٠٣، ومفاتيح الغيب: ٢٤/ ٤١١، وتفسير القرطبي: ١٢/ ٢٩٦، وأنوار التنزيل: ٤/ ١١٢، ومدارك التنزيل: ٢/ ٥١٥، والبحر المحيط: ٨/ ٦٣، وتفسير ابن كثير: ٦/ ٧٦، والبرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٠٤، والجواهر الحسان: ٤/ ١٩٥، ومحاسن التأويل ٧/ ٤٠٢.

(٩٣) المحرر الوجيز: ٤/ ١٩٢، ونقلها أبو حيان في: البحر المحيط: ٨/ ٦٣.

الاحْتِمَالَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ))[٩٤].

١٦-﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة الروم: ٢٧]

يَذْكُرُ المفَسِّرُونَ أَنَّ قَوْلَه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ يَحْتمِلُ أَوْجُهًا عِدَّةً[٩٥]؛ وَهِيَ: الأَوَّلُ: أَنَّ أَهْوَن بِمَعنَى: هَيِّن وَلَيْسَ أَفْعَلَ تَفْضِيل، وَالثَّانِي: أَنَّ إِعَادَةَ الخَلْقِ بَعْدَ البَعْثِ أَهْوَنُ عَلَيه من النَّشْأَةِ الأُوْلَى خَاطَبَ النَّاسَ بِمَا يَعْقِلُونَ من بَابِ ضَرْبِ الأَمْثَالِ لَهُم، وَالثَّالِثُ: وَالبَعْثُ أَهْوَنُ عَلَى الإِنْسَانِ من إِنْشَائِه، لأَنَّه يُقَاسِي فِي النَّشْءِ من تَدَرُّجٍ فِي الخَلْقِ مَا لا يُقَاسِيه فِي الإِعَادَةِ وَالبَعْثِ. وَيَرَى الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ هَذِه الجُمْلَةَ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الكَلامِ المُوَجَّهِ الَّذِي يَحتمِلُ مَعَانِيَ عِدَّةً، قَالَ: ((فَقَوْلُهُ أَهْوَنُ اسْمُ تَفْضِيلٍ، وَمَوْقِعُهُ مَوْقِعَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ، فَظَاهِرُهُ أَنَّ أَهْوَنُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى الْمُفَاضَلَةِ عَلَى طَرِيقَةِ إِرْخَاءِ الْعِنَانِ وَالتَّسْلِيمِ الْجَدَلِيِّ، أَيِ الْخَلْقُ الثَّانِي أَسْهَلُ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سورة ق: ١٥]. وَمُرَادُهُ: أَنَّ إِعَادَةَ الْخَلْقِ مَرَّةً ثَانِيَةً مُسَاوِيَةٌ لِبَدْءِ الْخَلْقِ فِي تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَتَحْمِلُ صِيغَةُ التَّفْضِيلِ عَلَى مَعْنَى قُوَّةِ الْفِعْلِ الْمَصُوغَةِ لَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [سورة يُوسُف: ٣٣]))[٩٦]. وَمَرَدُّ

(٩٤) التحرير والتنوير: ١٨/ ٢٧٨.

(٩٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٣٢٣، ومجاز القرآن: ٢/ ١٢١، وتأويل مشكل القرآن: ٢٢١، وغريب القرآن لابن قتيبة: ٣٤١، وغريب القرآن لابن قتيبة: ٣٤٠، وجامع البيان: ٢٠/ ٩٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ١٨٣ -١٨٤، وغريب القرآن للسجستاني: ٧٣، والكشف والبيان: ٧/ ٣٠١، والنكت والعيون: ٤/ ٣٠٩، والتفسير الوسيط: ٣/ ٤٣٢، والنكت في القرآن الكريم: ٣٨٩ -٣٩٠، وتفسير البغوي: ٣/ ٥٧٦، والكشاف: ٣/ ٤٧٧، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٣٥، وزاد المسير: ٣/ ٤٢١، ومفاتيح الغيب: ٢٥/ ٩٦ -٩٧، وتفسير القرطبي: ١٤/ ٢٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ٢٠٦، ومدارك التنزيل: ٢/ ٦٩٧ -٦٩٨، والدر المصون: ٩/ ٤٠، واللباب في علوم الكتاب: ١٥/ ٤٠٤ -٤٠٥، الجواهر الحسان: ٤/ ٣١١، وروح المعاني ١١/ ٣٧ -٣٨.

(٩٦) التحرير والتنوير: ٢١/ ٨٣.

التَّعَدُّدِ في تَوْجِيهِ العِبَارَةِ القُرآنِيَّةِ دَلاليًّا هُنَا يَعُودُ إِلَى نَظَرِ اللُّغَوِيِّينَ إِلى أَنَّه من غَيْرِ الجَائِزِ أَنْ يَكُونَ الفِعْلُ اسْمَ تَفْضِيلٍ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لا تَتَفَاوَتُ عِنْدَه الأَشْيَاءُ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ شَيْءٌ أَهْوَنُ من شَيْءٍ أَوْ شَيْءٌ أَقْوَى من شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلى اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، وَمِن ثَمَّ كَانَ عَلَيْهِ البَحْثُ عَن دَلالاتٍ أُخْرَى يَحْتَمِلُها السِّيَاقُ وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الطَّاهِرُ بِأَنَّه اسْمُ تَفْضِيلٍ للدَّلالَةِ عَلَى حَجْمِ الحَدَثِ الَّذِي صِيْغَ الفِعْلُ من أَجْلِه.

١٧- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزمر: ٣٨].

تَضَمَّنَ اسْتِعْمَالُ الضَّمِيرِ الدَّالِّ عَلَى جَمْعِ الإِنَاثِ في: ﴿هُنَّ كَاشِفَاتُ﴾ بَعْدَ الاسمِ المَوْصُولِ في: ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ﴾ انْزِيَاحًا أُسْلُوبِيًّا مُعْجِزًا، وَذَلِكَ لأَنَّ الاسْمَ المَوْصُولَ (مَا) يَدُلُّ عَلَى المُذَكَّرِ، في حِين جَاءَتِ الضَّمَائِرُ بَعْدَهُ دَالَّةً عَلَى المُؤَنَّثِ في: ﴿هُنَّ كَاشِفَاتُ، وَهُنَّ مُمْسِكَاتُ﴾، وَقَدْ الْتَفَتَ المُفَسِّرُونَ إِلى هَذَا الاستِعْمَالِ وَمَا يُؤَدِّيْهِ من مَعَانٍ بَلاغِيَّةٍ بَدِيعَةٍ مَعَ مَا فِيْهِ من إِيْجَازٍ، فَقَدْ عَلَّلَ أَبُو عُبَيْدَةَ هَذَا الاسْتِعْمَالَ بِأَنَّه أَنَّثَ الضَّمَائِرَ لأَنَّ الأَصْنَامَ مَوَاتٌ[٩٧]، وَقَالَ الكرمَانِيُّ في تَعْلِيْلِه بِأَنَّه ((جَمَعَ «هُنَّ»، لأَنَّه حَمَلَ (مَا) عَلَى المُؤَنَّثِ))[٩٨]. وَوَجَدَ الرَّازِيُّ في هَذَا التَّأْنِيثِ إِشَارَةً إِلَى مَا في هَذِه المَعْبُودَاتِ من ضَعْفٍ، قَالَ: ((فَإِنْ قيل كيف قوله: كاشفاتُ ومُمْسكاتُ عَلَى التَّأْنِيثِ بَعْدَ قَوْلِه: وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِه؟. قُلْنَا الْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَى كَمَالِ ضَعْفِهَا فَإِنَّ الْأُنُوثَةَ مَظِنَّةُ الضَّعْفِ وَلأَنَّهُمْ كَانُوا يَصِفُونَهَا بِالتَّأْنِيثِ وَيَقُولُونَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ))[٩٩]. وَلَمَّسَ ابنُ عَادِلٍ الحَنْبَلِيُّ في هَذَا التَّأْنِيثِ تَحْقِيرًا، قَالَ:

(٩٧) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٩٠.

(٩٨) غرائب التفسير وعجائب التأويل: ٢/ ١٠١٥.

(٩٩) مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٥٥، وينظر: أنوار التنزيل: ٥/ ٤٣، وروح المعاني: ١٢/ ٢٦١.

((قَوْلُه «هُنَّ» وَإِنَّمَا أَنَّثَهُ تَحْقِيرًا لِمَا يَدْعُونَ مِن دُوْنِهِ وَلِأَنَّهُم كَانُوا يُسَمُّونَهَا بِأَسْمَاءِ الإِنَاثِ اللَّاتِ وَمَنَاةَ والعُزَّى))[100].

وَعَلَّلَ السُّيوطِيُّ الأَمْرَ بِعِلَّتَيْنِ الأُوْلَى لُغَوِيَّةٌ وَالثَّانِيَةُ بَلَاغِيَّةٌ؛ قَالَ: ((فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ كَاشِفَاتُ وَمُمْسِكَاتُ بِالتَّأْنِيثِ؟ فَالجَوَابُ: أَنَّهَا لا تَعْقِلُ فَعَامَلَهَا مُعَامَلَةَ المؤَنَّث. وَأَيْضًا فَفِي تَأْنِيثِهَا تَحْقِيرٌ لَهَا وَتَهَكُّمٌ بِمَنْ عَبَدَهَا))[101]. وَرَأَى الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ فِي هَذَا الاسْتِعْمَالِ فَنَّ الكَلَامِ المَوَجَّه، وَذَلِكَ أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَفَادَ مِن خَصَائِصِ (مَا) الَّتِي تُتِيحُ التَّعْبِيرَ عَنْهَا بِضَمِيرِ المؤَنَّثِ لأَنَّهَا لا تَعْقِلُ، تَحْقِيرًا لَهَا وَتَهَكُّمًا بِمَنْ يَعْبُدُهَا، قَالَ: ((وَضَمِيرُ هُنَّ عَائِدٌ إِلَى مَا الْمَوْصُولَةِ وَكَذَلِكَ الضَّمَائِرُ الْمُؤَنَّثَةُ الْوَارِدَةُ بَعْدَهُ ظَاهِرَةً وَمُسْتَتِرَةً، إِمَّا لِأَن (مَا) صدق مَا الْمَوْصُولَةُ هُنَا أَحْجَارٌ غَيْرُ عَاقِلَةٍ وَجَمْعُ غَيْرِ الْعُقَلَاءِ يَجْرِي عَلَى اعْتِبَارِ التَّأْنِيثِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يُصَيِّرُ الْكَلَامَ مِنْ قَبِيلِ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ كَالْإِنَاثِ لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّصْرِ))[102].

وَمِن ثَمَّ يَكُونُ هَذَا التَّعْبِيرُ مِن بَابِ الكَلامِ المَوَجَّه عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ مَعْنَى (مَا) هُوَ الأَصْنَامُ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فَأَعَادَ عَلَيْهَا الضَّمِيرَ مُؤَنَّثًا أَوْ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ آلِهَتَهُم ضَعِيفَةٌ كَالإِنَاثِ لا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ فَأَعَادَ عَلَيْهَا الضَّمِيرَ مُؤَنَّثًا تَحْقِيرًا إِشَارَةً إِلَى ضَعْفِهَا بَلْ مَوْتِهَا. وَهَذَا إِنَّمَا أَتَاحَتْهُ اللُّغَةُ مِن خِلالِ الخَصَائِصِ اللُّغَوِيَّةِ وَالتَّعْبِيرِيَّةِ لـ(مَا الموصُولَة)، وَسَاعَدَ عَلَيْهِ انفِتَاحُ الأُفُقِ التَّأْوِيلِي عِنْدَ المفَسِّرِينَ بِمَا يَخْدُمُ كَوْنَ النَّصِّ الكَرِيمِ مُعْجِزًا وَمُحَمَّلًا بِالدَّلالاتِ المُبْهِرَةِ.

١٨- ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[سورة الزخرف: ٦١].

يُوْرِدُ المفَسِّرُونَ ثَلاثَةَ أَقْوَالٍ[103]

(١٠٠) اللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٥١٨.

(١٠١) معترك الأقران: ٣/ ٢٤٧.

(١٠٢) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٧.

(١٠٣) ينظر القولين الأول والثاني في: جامع البيان: ٢١/ ٦٣١، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٤١٧، والكشف والبيان: ٨/ ٣٤١، والنكت والعيون: ٥/ ٢٣٥، ولطائف الإشارات: ٣/ ٣٧٢، والتفسير الوسيط: ٤/ ٧٩، وغرائب التفسير وعجائب التأويل ٢/ ١٠٦٦، والكشاف: ٤/ ٢٦١، وزاد

في تَأْوِيلِ الضَّمِيرِ الهاءِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، الأَوَّل: أَنَّ المعْنِيَّ بِهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام لأَنَّ ظُهُورَه من أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَالثَّاني: أَنَّه بِمَعْنَى القُرآنِ الكَرِيم، وَالثَّالِث: أَنَّه يَعُودُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ لأَنَّه آخِرُ الأَنْبِياءِ، وَقَدْ ذَكَرَه أَبُو حَيَّان الأَندلسيُّ(١٠٤). وبيَّن الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ هَذَا الكَلامَ يَحْتمِلُ أَنْ يَكُونَ مُوَجَّهًا مِنْ اللَّه تَعَالَى إِلَى الْمُنْكِرِينَ يَوْمَ الْبَعْثِ، وَيَحْتمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ(١٠٥).

١٩- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [سورة الذاريات: ٢٤].

يَذْكُرُ المفَسِّرُونَ، في سَبَبِ وَصْفِ ضُيُوفِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِالمكْرَمِينَ، أَرْبَعَةَ أَقْوَالٍ(١٠٦)، جَمَعَهَا ابنُ الجَوزِيِّ؛ قَالَ: ((وَفِي مَعْنَى «المُكْرَمِينَ» أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: لِأَنَّهُ أَكْرَمَهُم بِالعجْلِ،... ، وَالثَّاني: بِأَنْ خَدَمَهُم هُوَ وَامْرَأَتُه بِأَنْفُسِهِمَا،... ، وَالثَّالِثُ: أَنَّهُم مُكْرَمُونَ عِنْدَ اللهِ،... ، وَالرَّابِعُ: لِأَنَّهُم أَضْيَافٌ، وَالأَضْيَافُ مُكْرَمُون))(١٠٧). وَيَبْدُو لَنَا أَنَّ القَوْلَيْنِ الأَوَّل وَالأَخِيرَ ضَعِيفَانِ لا يَصْلُحَانِ سَبَبًا مُقْنِعًا لِوَصْفِ ضُيُوفِ إِبْرَاهِيمَ بِالمكْرَمِينَ، بِخِلافِ القَوْلَيْنِ الثَّاني وَالثَّالِث، إِذْ لا يَخْلُوَانِ من وَجَاهَةٍ بِسَبَبِ مَا يَلْمَسُه القَارِئُ فِيهِمَا من تَعْلِيلٍ لِلإِكْرَامِ بِأَنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ نَفْسَه قَامَ بِخِدمَتِهِم وَإِكْرَامِهِم، أَوْ لِأَنَّ

المسير: ٤/ ٨٢، وتفسير القرطبي: ١٦/ ١٠٥، و أنوار التنزيل: ٥/ ٩٤، و مدارك التنزيل: ٣/ ٢٧٩، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٢٣٦، ومحاسن التأويل ٨/ ٣٩٦.

(١٠٤) البحر المحيط: ٩/ ٣٨٦.

(١٠٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٤٣.

(١٠٦) ينظر: جامع البيان: ٢٢/ ٤٢٤، ومعاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٥٤، والكشف والبيان: ٩/ ١١٧، والنكت والعيون ٥/ ٣٦٩، ولطائف الإشارات: ٣/ ٤٦٦، والتفسير الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧، والوجيز للواحدي: ١٠٢٩، و الكشاف: ٤/ ٤٠١، و المحرر الوجيز: ٥/ ١٧٧، وزاد المسير: ٤/ ١٧٠، ومفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٧٤، وتفسير القرطبي ١٧/ ٤٤، وأنوار التنزيل: ٥/ ١٤٨، ومدارك التنزيل: ٣/ ٣٧٥، و البحر المحيط: ٩/ ٥٥٥، وتفسير القرآن الكريم لابن القيم: ٤٨٧، واللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ٨١، ومعترك الأقران: ٣/ ٢٤٩، ومحاسن التأويل: ٩/ ٤١.

(١٠٧) زاد المسير: ٤/ ١٧٠.

هَؤلَاءِ الضُّيُوفِ مِن الملائِكَةِ الَّذِينَ لَهُم مَنْزِلَةٌ مُكرمَةٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. وَلَعَلَّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ مَا فَهِمَه الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور إِذْ بَيَّنَ أَنَّ وَصْفَهُم بِالْمُكْرَمِينَ هُوَ مِن الكَلام الموَجَّه، لِأَنَّه يَحْتمِلُ أَنَّهُم مُكْرَمُونَ لِأَنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ أَكْرمَهم كَمَا هِيَ عَادَتُهُ مَعَ الضَّيْف، أَوْ أَنَّهُم مُكْرَمُونَ لِأَنَّهُم مَلائِكَةٌ لَهُم دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ هِيَ شَرَفُ القُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ: ((وَوَصْفُهُمْ بِالْمُكْرَمِينَ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ لِأَنَّهُ يُوهِمُ أَنَّ ذَلِكَ لِإِكْرَامِ إِبْرَاهِيمَ إِيَّاهُمْ كَمَا جَرَتْ عَادَتُهُ مَعَ الضَّيْفِ وَهُوَ الَّذِي سَنَّ الْقِرَى، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُمْ بِرَفْعِ الدَّرَجَةِ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُقَرَّبُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [سورة الْأَنْبِيَاء: ٢٦] وَقَالَ: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار: ١١]))[١٠٨]. وَلَعَلَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَرَادَ هَذِهِ المعَانِي جَمِيعًا مِن بَابِ الاتِّسَاعِ لِيُؤَدِّيَ أَكْثَرَ مِن مَعْنًى فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ إِيْجَازًا وَتَكْثِيفًا. وَقَدْ سَاعَدَ عَلَى هَذَا التَّعَدُّدِ الدَّلالِيِّ طَرِيقَةُ صِيَاغَةِ الجُمْلَةِ وَصِيَاغَةِ المفْرَدَةِ بِحَيْثُ يَخْلُو النَّصُّ مِن القَرَائِنِ الَّتِي تُرْشِدُ القَارِئَ إِلى دَلالَةٍ مُحَدَّدَةٍ مَطْلُوبَةٍ وَتَصْرِفُ ذِهْنَه عَن الدَّلالاتِ الأُخْرَى.

٢٠- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [سورة الواقعة: ٩٠ -٩٤].

يَتَّفِقُ أَغْلَبُ المفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ هُوَ الإِحْرَاقُ بِالنَّارِ وَمقَاسَاتِهَا[١٠٩]. وَلَكِنَّ الطَّاهِرَ بنَ عَاشُور وَجَدَ أَنَّ فِي اسْتِعْمَالِهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي اسْتُعْمِلَتْ فِيْهِ هُنَا هُوَ مِن بَابِ الكَلامِ الموَجَّه؛ لِأَنَّه يُوهِمُ أَنَّه يُصْلَى لَهُ الشِّوَاءُ تَهَكُّمًا بِه، قَالَ: ((وَالتَّصْلِيَةُ: مَصْدَرُ صَلَّاهُ المشدّد،

(١٠٨) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٣٥٨.

(١٠٩) ينظر: جامع البيان: ٢٣/ ١٦٣، ومعاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١١٨، والكشف والبيان: ٩/ ٢٢٥، والتفسير الوسيط: ٤/ ٢٤٢، والوجيز للواحدي: ١٠٦٥، وتفسير البغوي: ٥/ ٢٣، وتفسير القرطبي: ١٧/ ٢٣٤، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٣١، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٥٥١، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٢٠٢، وروح المعاني: ١٤/ ١٦١، ومحاسن التأويل ٩/ ١٣٥.

إذا أَحْرَقَهُ وَشَوَاهُ، يُقَالُ: صَلَّى اللَّحْمَ تَصْلِيَةً، إِذَا شَوَاهُ، وَهُوَ هُنَا مِنَ الْكَلَام الموجه لإيهامه أنه يُصَلَّى لَهُ الشِّوَاءُ فِي نُزُلِه عَلَى طَرِيقَةِ التَّهَكُّم، أَيْ يُحَرَّقُ بِهَا))[110].

٢١- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[سورة المجادلة: ١٤].

وَصَفَ النَّصُّ الكَرِيمُ المَنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ اليَهُودَ الَّذِينَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم، فَيُنَاصِحُونَهُم وَيَنقلُونَ إِلَيهم أَسْرَارَ المؤْمِنِينَ =بِأَنَّهُم لَيْسُوا من المسْلِمِينَ وَلا من اليَهُودِ، وَبِأَنَّهُم يَحْلِفُونَ كَذِبًا وَهُم يَعْلَمُون[111]. وَقَدْ وَجَدَ ابنُ عَطِيَّةَ فِي هَذَا الاسْتِعْمَالِ دَلالَتَيْن، الأُوْلَى عَلَى أَنَّ جُمْلَةَ (مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) مُسْتَأْنَفَةٌ وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَنِ المَنَافِقِينَ بِأَنَّهُم لَيْسُوا مِن المؤْمِنِينَ الخُلَّص، وَلَا من الكَافِرِينَ الخُلَّص بَلْ هُم مُذَبْذَبِينَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَإِلَى هَؤُلَاءِ؛ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ فِي «مَا هُم» عَائِدٌ عَلَى الَّذِينَ تَوَلَّوا (وَهُم المَنَافِقُونَ)، وَالضَّمِيرُ فِي «مِنْهُم» عَائِدٌ عَلَى اليَهُودِ، (وَالتَّقْدِيرُ: وَمَا المَنَافِقُونَ مِنَ اليَهُودِ). وَالدَّلالَة الثَّانِيَة: أَنَّها جُمْلَةٌ فِي مَحلِّ نَصْبِ صِفَةٍ ثَانِيَةٍ لِـ(قَوْمًا)؛ وَعَلَيْهِ، يَكُونُ الضَّمِيرُ فِي «مَا هُم» عَائِدًا عَلَى «قَوْماً»، وَهُم اليَهُودُ، وَالضَّمِيرُ فِي «مِنْهُم» عَائِدٌ عَلَى الَّذِينَ تَوَلَّوا يَعْنِي: اليَهُودَ الَّذِينَ هُم لَيْسُوا مِنْكُم أَيُّهَا المؤْمِنُونَ، وَلا من المَنَافِقِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ تَوَلَّاهُم المَنَافِقُونَ[112]، (وَالتَّقْدِيرُ مَا اليَهُودُ مِنْكُم وَلا من المَنَافِقِينَ). وَقَدْ حَلَّلَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور هَذِهِ الجُمْلَةَ مُبيِّنًا أَنَّها مُسْتَعْمَلَةٌ عَلَى طَرِيقَةِ الكَلام المُوَجَّه لِغَرَضِ تَكْثِيرِ المَعَانِي مَعَ الإِيْجَاز، قَالَ: ((وَضَمِيرُ مَا هُمْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ

(١١٠) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٥٠.

(١١١) ينظر: جامع البيان: ٢٣/ ٢٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١٤٠، والكشاف: ٤/ ٤٩٥، والمحرر الوجيز: ٥/ ٢٨٠، ومفاتيح الغيب: ٢٩/ ٤٩٧، وتفسير القرطبي: ١٧/ ٣٠٤، وأنوار التنزيل: ٥/ ١٩٥، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٥١، والبحر المحيط: ١/ ١٢٨، وتفسير ابن كثير: ٨/ ٥٢، ومحاسن التأويل: ٩/ ١٧٧.

(١١٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٢٨٠، والدر المصون: ١٠/ ٢٧٣، واللباب في علوم الكتاب ١٨/ ٥٥٣.

فَيَكُونُ جُمْلَةُ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ حَالًا مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا، أَيْ مَا هُمْ مُسْلِمُونَ وَلَا يَهُودٌ. وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَى قَوْماً وَهُمُ الْيَهُودُ. فَتَكُونُ جُمْلَةُ مَا هُمْ مِنْكُمْ صِفَةَ (قَوْماً)، قَوْمًا لَيْسُوا مُسْلِمِينَ وَلَا مُشْرِكِينَ بَلْ هُمْ يَهُودٌ. وَكَذَلِكَ ضَمِيرُ وَلا مِنْهُمْ يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ عَلَى التَّعَاكُسِ وَكِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ وَاقِعٌ. وَمُرَادٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ تَكْثِيرًا لِلْمَعَانِي مَعَ الْإِيجَازِ فَيُفِيدُ التَّعْجِيبَ مِنْ حَالِ الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَتَوَلَّوْا قَوْمًا أَجَانِبَ عَنْهُمْ عَلَى قَوْمٍ هُمْ أَيْضًا أَجَانِبُ عَنْهُمْ، عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ كَانَ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ اخْتِلَافُ الدِّينِ فَإِنَّ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ اخْتِلَافُ الدِّينِ وَاخْتِلَافُ النَّسَبِ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ عَرَبٌ وَيُفِيدُ بِالِاحْتِمَالِ الْآخَرِ الْإِخْبَارَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ إِسْلَامَهُمْ لَيْسَ صَادِقًا، أَيْ مَا هُمْ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: وَلا مِنْهُمْ عَلَى هَذَا الِاحْتِمَالِ احْتِرَاسًا وَتَتْمِيمًا لِحِكَايَةِ حَالِهِمْ، وَعَلَى هَذَا الِاحْتِمَالِ يَكُونُ ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ أَشَدَّ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى حَمَاقَتِهِمْ إِذْ جَعَلُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مَنْ لَيْسُوا عَلَى دِينِهِمْ فَهُمْ لَا يُوثَقُ بِوِلَايَتِهِمْ وَأَضْمَرُوا بُغْضَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُصَادِفُوا الدِّينَ الْحَقَّ))[١١٣]. وَمَرَدُّ هَذِهِ الاحْتِمَالاتِ هُوَ الاخْتِلَافُ فِي قِرَاءَةِ مَرْجِعِيَّاتِ الضَّمَائِرِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا النَّصُّ الكَرِيمُ؛ إِذْ يَصْلُحُ لَهَا أَنْ تَعُودَ فِي كُلِّ قِرَاءَةٍ تَفْسِيرِيَّةٍ عَلَى مَرْجِعٍ مُخْتَلِفٍ يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ المَعْنَى وَتَكْثِيرِهِ لا خِلافِهِ وَتَعَارُضِهِ.

٢٢- ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الصف: ٦].

يَحْتَمِلُ الضَّمِيرُ المُسْتَتِرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى النَّبِيِّ عِيسَى عليه السلام، وَالآخَرُ: أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَلِكَ نَظَرًا إِلى أَثَرِ السِّيَاقِ العَامِّ، وَقَدْ الْتَفَتَ إِلى هَذَا الأَثَرِ ابنُ عَطِيَّةَ، قَالَ: ((وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾، الآية يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ

(١١٣) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٤٨.

عِيسَى، وَتَكُونُ الآيةُ وَمَا بَعْدَهَا تَمْثِيلًا بِأُولَئِكَ لِهَؤُلَاءِ المعَاصِرِينَ لِمُحَمَّدﷺ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّمْثِيلُ قَدْ فَرَغَ عِنْدَ قَوْلِه: اسْمُهُ أَحْمَدُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلى ذِكْرِ أَحْمَدَ لما تَطَرَّق ذِكْرُه، فَقَالَ مُخَاطَبَةً لِلمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا جَاءَ أَحْمَدُ هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ))[١١٤]. وَذَهَب الثَّعَالبِيُّ إِلى أَنَّ الوَجْهَ الأَوَّلَ -وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِيْهِ الضَّمِيرُ رَاجِعًا إِلى النَّبِيِّ عِيْسَىعليه السلام-هُوَ الأَظْهَرُ هُنَا[١١٥]. في حِين ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ لِكُلِّ احْتِمَالٍ مِنْهُمَا مَا يُؤَيِّدُه، قَالَ: ((يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ عِيْسَى أَوْ مُحَمَّدًا-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ. وَيُؤَيِّدُ الأَوَّلَ اتِّصَالُه بِمَا قَبْلَه. وَيُؤَيِّدُ الثَّانِيَ: ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾، لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى الإِسْلَامِ هُوَ مُحَمَّدٌﷺ))[١١٦]. وَبَيَّنَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ هَذَا الأُسْلُوبَ هُوَ مِن قَبِيلِ الكَلَامِ المُوَجَّهِ لِتَوْسِيعِ مِسَاحَةِ الاحْتِمَالَاتِ الدَّلَالِيَّةِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ مُرَادَةً مَعَ المُحَافَظَةِ عَلَى الإِيْجَاز، قَالَ: ((وَقَوْلُهُ: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هَذا سِحْرٌ مُبِينٌ هُوَ مَنَاطُ الْأَذَى. فَإِنَّ الْمُتَبَادِرَ أَنْ يَعُودَ ضَمِيرُ الرَّفْعِ فِي قَوْلِه: جاءَهُمْ إِلَى عِيسَى، وَأَنْ يَعُودَ ضَمِيرُ النَّصْبِ إِلَى الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ عِيسَى. وَالتَّقْدِيرُ: فَكَذَّبُوهُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ أَوْ هُوَ سَاحِرٌ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرُ الرَّفْعِ عَائِدًا إِلَى رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي. وَضَمِيرُ النَّصْبِ عَائِدًا إِلَى لَفْظِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَيْ بَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ عِيسَىعليه السلام،... ، أَيْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الرَّسُولُ الَّذِي دَعَاهُ عِيسَى بِاسْمِ أَحْمَدَ بِالْبَيِّنَاتِ، أَيْ دَلَائِلِ انْطِبَاقِ الصِّفَاتِ الْمَوْعُودِ بِهَا قَالُوا هَذَا سِحْرٌ أَوْ هَذَا سَاحِرٌ مُبِينٌ فَيَكُونُ هَذَا التَّرْكِيبُ مُبَيَّنٌ مِنْ قَبِيلِ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ. وَحَصَلَ أَذَاهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ لِكِلَا الرَّسُولَيْنِ. فَالْجُمْلَةُ عَلَى هَذَا الاحْتِمَالِ تُحْمَلُ عَلَى أَنَّهَا اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُتَعَاطِفَاتِ وَمُمَهِّدَةٌ لِلتَّخَلُّصِ إِلَى مَذَمَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ

(١١٤) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٠٣، وينظر: جامع البيان ت شاكر ٢٣/ ٣٥٩، و مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ٢٩/ ٥٢٩، و تفسير القرطبي ١٨/ ٨٤، و اللباب في علوم الكتاب ١٩/ ٥٤.

(١١٥)ينظر: الجواهر الحسان: ٥/ ٤٢٧.

(١١٦) معترك الأقران: ٣/ ١١١.

مِمَّنْ لَمْ يَقْبَلْ دَعْوَة مُحَمَّدﷺ))[117].

٢٣-﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾

[سورة القلم: ٤ -٦].

يَذْكُرُ المفَسِّرُونَ في تَفْسِيرِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أَوْجُهًا[118]، جَمَعَهَا الماورديُّ، قَالَ: ((﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ: أَحَدُهَا: يَعْنِي المجنُونَ، قَالَه الضَّحاكُ. الثَّاني: الضَّالُّ، قَالَه الحَسَنُ. الثَّالِثُ: الشَّيْطَانُ، قَالَه مُجَاهِد. الرَّابِعُ: المُعَذَّبُ من قَوْلِ العَرَب: فَتَنْت الذَّهَبَ بالنَّارِ إِذَا أَحْمَيْتَه))[119]. ومَنْ يَتَأَمَّلْ في أَقْوَالِ المفَسِّرِينَ عَلَى هَذَا المَوْضِعِ من الآيةِ الكريمَةِ يَجِدْ أَنَّهَا نَاتِجَةٌ من التَّأْوِيلِ في ضَوْءِ القَوْلِ بِزِيَادَةِ الهَمْزَةِ أَوْ عَدَمِ زِيَادَتِهَا، أَوْ بِاخْتِلافِ النَّظَرِ إِلى (مَفتُون) بَيْنَ أَنْ تَكُونَ اسْمَ مَفعُولٍ أَوْ مَصْدَرًا عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الأَسْبَابَ الَّتِي أَدَّت إِلَى تَعَدُّدِ الأَقْوَالِ الدَّلالِيَّةِ لِكَلِمَةِ (المفْتُون) لَمْ تَمْنَعْ الطَّاهِرَ بنَ عَاشُور من الذَّهَابِ إِلَى أَنَّ اسْتِعْمَالَهَا جَاءَ عَلَى طَرِيقَةِ الكَلامِ المَوَجَّه؛ قَالَ: ((والْمَفْتُونُ: اسْمُ مَفْعُولٍ وَهُوَ الَّذِي أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ، فَيَجُوزُ أَنْ يُرَاد بِهَا هُنَا الْجُنُونُ فَإِنَّ الْجُنُونَ يُعَدُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ قَبِيلِ الْفِتْنَةِ (يَقُولُونَ لِلْمَجْنُونِ: فَتَنَتْهُ الْجِنُّ) وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ مَا يَصْدُقُ عَلَى الْمُضْطَرِبِ فِي أَمْرِهِ الْمَفْتُونِ فِي عَقْلِهِ حَيْرَةً وَتَقَلْقُلًا، بِإِيثَارِ هَذَا اللَّفْظِ، دُونَ لَفْظِ الْمَجْنُونِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ أَوِ التَّوْرِيَةِ لِيَصِحَّ فَرْضُهُ لِلْجَانِبَيْنِ))[120].

(١١٧) التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٨٦ -١٨٧.

(١١٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٧٣، وجامع البيان: ٢٣/ ٥٣٠، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٢٠٤-٢٠٥، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٥، والكشف والبيان: ١٠/ ١١، ومشكل إعراب القرآن: ٢/ ٧٤٩، والنكت في القرآن الكريم: ٥٠٩، والمفردات في غريب القرآن: ٦٢٤ -٦٢٥، وغرائب التفسير وعجائب التأويل ٢/ ١٢٣٧، وتفسير البغوي: ٥/ ١٣٥، والكشاف: ٤/ ٥٨٦، وزاد المسير: ٤/ ٣٢٠، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٠٢، وتفسير القرطبي ١٨/ ٢٢٩، ومدارك التنزيل: ٣/ ٥١٩، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٣٧، والدر المصون: ١٠/ ٤٠١، واللباب في علوم الكتاب: ٤/ ١٨ -١٩، والجواهر الحسان: ٥/ ٤٦٥.

(١١٩) النكت والعيون: ٦/ ٦٢.

(١٢٠) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٦٦.

الخاتمة ونتائج البحث:

وَيَطِيبُ لَنَا في خِتَام هَذِهِ الرِّحْلَة العلمية في نُصُوص القُرآن الكَرِيم وفي عُقُول المفَسِّرين وَاللُّغويّين الَّتِي تَعْكِسُهَا قِرَاءَاتُهم لِتِلْكَ النُّصُوص الكَرِيمَة أَنْ نَخْلُصَ إِلى القَوْل بِأَنَّ الكَلامَ المُوَجَّهَ فَنٌّ لُغَويٌّ بَلَاغِيٌّ أَشَارَ إِلَيْهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ من اللُّغَويّينَ وَالبَلاغِيّينَ القُدَمَاء وَالمتَأَخِّرِينَ، وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ القُدَمَاءُ أَسْمَاءً مُخْتَلِفَةً مِنْهَا التَّوْجِيهُ وَالإِبْهَامُ وَالإِيْهَامُ وَالتَّوريَةُ، وَهُم يُرِيْدُونَ به: أَنْ يَدُلَّ النَّصُّ اللُّغَوِيُّ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُحْتَمَلَةٍ وَلَيْسَتْ مُتَكَلَّفَةً، فَتَبْدُو الدَّلالاتُ المخْتَلِفَةُ مَقْبُولَةً وَلَهَا مَا يُؤَيِّدُهَا في النُّصُوص؛ لِخُلُوِّ هَذِهِ النُّصُوص من القَرَائِن الَّتِي تُرَجِّحُ وَجْهًا عَلَى آخَرَ، من جِهَةٍ، ولِأَنَّ العِبَارَةَ القُرآنِيَّةَ عِبَارَةٌ مُعْجِزَةٌ صِيْغَتِ الأَلْفَاظُ فِيْهَا عَلَى نَحْوٍ بَلِيغٍ وَنُسِجَتِ التَّرَاكِيبُ فِيْهَا نَسْجًا دَقِيقًا، يُتِيحُ لِلْمُتَلَقِّي أَنْ يَقْرَأَ النَّصَّ الكَرِيمَ قِرَاءَاتٍ عِدَّةً لا قِرَاءَةً وَاحِدَةً. وَلَعَلَّ مِمَّا أَتَاحَ هَذَا التَّعَدُّدَ في الدَّلالاتِ مَا تَمْتَازُ بِهِ اللُّغَةُ العربية عَامَّةً وَالقُرآنِيَّةِ خَاصَّةً من خَصَائِصَ تُسَاعِدُ عَلَى هَذَا الاتِّسَاعِ وَالاحْتِمَالِ وَالتَّعَدُّدِ؛ مِنْهَا ظَاهِرَةُ الاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ إِذْ تَحْتَمِلُ بَعْضُ الأَلْفَاظِ دَلالاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنْهَا مَا لَمَسْنَاهُ، مَثَلًا، في كَلِمَة (رَبّ) و(المفتون) كَمَا مَرَّ بِنَا. كَمَا أَنَّ من أَسْبَابِ التَّعَدُّدِ الدَّلالِيِّ اسْتِعْمَالَ الضَّمَائِرِ عَلَى نَحْوٍ يَسْمَحُ بِانْفِتَاحِ النَّصِّ على الدَّلالاتِ وَالمعَانِي المقْصُودَةِ وَلَيْسَتِ الاعْتِبَاطِيَّةِ. وَلابُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَمْرٍ مُهِمٍّ هُنَا وَهُوَ أَنَّ هَذَا الفَنَّ يَبْدُو أَكْثَرَ وُضُوحًا في التَّحْلِيْلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالبَلَاغِيَّةِ عِنْدَ المتَأَخِّرِينَ وَالمحْدَثِينَ، مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ عِنْدَ المتَقَدِّمِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الفَنَّ مَبْنِيٌّ عَلَى تَعَدُّدِ القِرَاءَاتِ لِلنَّصِّ الوَاحِدِ، (سَواء عِنْدَ عَالِمٍ وَاحِدٍ أَوْ عِنْدَ عُلَمَاءَ مُخْتَلِفِينَ وَمُتَتَابِعِينَ)، وَمِن ثَمَّ فَإِنَّ المفَسِّرِينَ وَالبَلاغِيِّينَ المتَأَخِّرِينَ وَالمُحْدَثِينَ وَجَدُوا أَمَامَهُم زَادًا وَافِرًا من الآرَاءِ وَالاجْتِهَادَاتِ الَّتِي يَتَبَيَّنُ من دِرَاسَتِهَا وَتَحْلِيْلِهَا وَمُحَاكَمَتِهَا أَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى القَوْلِ بِالكَلامِ المُوَجَّهِ الَّذِي تَحْتَمِلُ العِبَارَةُ فِيهِ دَلالاتٍ عِدَّةً. وَلَا تَفُوتُنَا الإِشَارَةُ هُنَا إِلَى أَنَّ من أَهَمِّ المفَسِّرِينَ

الَّذِينَ عُنُوا بِالكَشْفِ عَن صُوَرِ هَذَا الفَنِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَبَيَانِ أَثَرِهِ فِي دَلَالَةِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ -كَمَا ظَهَرَ مِنَ البَحْثِ -هُمْ: الماوردي والرَّازي وَأَبُو حَيَّان الأَنْدَلسيّ مِنَ القُدَمَاءِ، والطَّاهِرُ بنُ عَاشُور مِنَ المحْدَثِينَ.

مصادر البحث ومراجعه:

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العماد محمد بن محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت.
- إعراب القرآن المنسوب للزجاج، جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي (ت نحو ٥٤٣هـ)، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري -القاهرة ودار الكتب اللبنانية -بيروت، ط: ٤، ١٤٢٠ هـ.
- إعراب القرآن للنحاس، أبو جعفر النَّحَّاس النحوي (ت ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٢١ هـ.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت ١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشؤون الجامعية -سورية، (دار اليمامة - دمشق -بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق -بيروت)، ط: ٤، ١٤١٥ هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط: ١ -١٤١٨ هـ.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني (ت ١١١٩هـ).
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر-بيروت، ط: سنة ١٤٢٠هـ.

- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط: ١، ١٣٧٦ هـ-١٩٥٧ م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (ت١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب، ط: ١٧: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (ت ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة -المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية -لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر -تونس، ١٩٨٤ هـ.
- تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩ م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن «تفسير البغوي»، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار

إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤٢٠ هـ.

- تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)، جزء ١: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة: د.محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب-جامعة طنطا، ط: ١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩ م، جزء ٢، ٣: تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن-الرياض، ط: ١، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣ م، جزء ٤، ٥: تحقيق ودراسة: د. هند بنت محمد بن زاهد سردار، كلية الدعوة وأصول الدين-جامعة أم القرى، ط: ١، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١م.
- تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، دار ومكتبة الهلال -بيروت، ط: ١، ١٤١٠ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي»، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية -القاهرة، ط: ٢، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤ م.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط: ١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤ م.
- جامع البيان في تأويل القرآن «تفسير الطبري»، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: ١،

١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠ م.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق- مؤسسة الإيمان، بيروت، ط: ١، ١٤١٨هـ.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال- بيروت، دار البحار -بيروت، ط: الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٤م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف- القاهرة، ط٣، ١٩٩٠.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٥ هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي -بيروت، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥هـ)، المكتبة العنصرية -بيروت، ط: ١، ١٤٢٣ هـ.
- غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت نحو ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية -جدة، مؤسسة

علوم القرآن -بيروت.
- غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨م.
- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، محمد بن عُزير السجستاني العُزيري (ت ٣٣٠هـ)، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة-سوريا، ط: ١، ١٤١٦ هـ-١٩٩٥م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي -بيروت، ط: ٣، ١٤٠٧ هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، ط: ١، ١٤٢٢، هـ-٢٠٠٢ م.
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية-بيروت/ لبنان، ط: ١، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.
- لطائف الإشارات «تفسير القشيري»، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب -مصر، ط: ٣.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت ٢٠٩هـ)، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: سنة ١٣٨١هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب

العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل «تفسير النسفي»، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨ م.
- مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة -بيروت، ط: ٢، ١٤٠٥هـ.
- معاني القرآن للأخفش، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة -مصر، ط: ١.
- معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى-مكة المكرمة، ط: ١، ١٤٠٩هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، عالم الكتب -بيروت، ط: ١، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب

العلمية -بيروت -لبنان، ط: ١، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.

- مفاتيح الغيب «تفسير الرازي أو التفسير الكبير»، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ٣، ١٤٢٠ هـ.
- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط: ٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧ م.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية -دمشق بيروت، ط: ١، ١٤١٢ هـ.
- النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه)، علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، أبو الحسن (ت ٤٧٩هـ)، دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار النشر: دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- النكت والعيون «تفسير الماوردي»، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية -بيروت.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية -القاهرة، ط: ١، ١٤٢٣ هـ.